follow on telegram: @librarytn

follow on telegram: @librarytn

https://t.me/librarytn

أراليبراري

جزيرة أزمور

follow on telegram: @librarytn

رواية

جزيرة أزمور

عمرو البسيوني

follow on telegram: @librarytn

إهداء

إلى سندي في الدنيا، وملجئِي الآمن،
وأعظم نِعَم الله عليَّ، وحظي من هذه الحياة. إلى أمي وأبي..
حفظكما الله لي وأدام عليَّ نعمة وجودكما.

follow on telegram: @librarytn

سهير ليالي وياما لفيت وطفت
وفـ ليلة راجع في الضلام قمت شفت الخوف..
كأنَّه كلب سد الطريق وكنت عاوز أقتله..
بس خفت..
وعجبي!

صلاح جاهين

follow on telegram: @librarytn

(١)

القاهرة الفاطمية عام 1065م

الشدة المستنصرية

«لقمة واحدة من أجل هذا الطفل المسكين.... ارحموه يرحمكم الله».

جملة قالتها إحدى النساء حاملةً طفلها الذي نحل جسده، فأصبح كالزهرة الذابلة وهي تتوسل الطعام من أحد البيوت، التي لم تعْطِها شيئًا، ليس لقسوة قلوبهم وإنما لأنهم أصبحوا لا يملكون شيئًا يمكن إعطاؤه، فمات صغيرها بين يديها من شدة الجوع. مصر التي كانت تُطعِمُ العالم كله أصبحت لا تقوى على سدِّ رمق أبنائها فأصبحوا يتساقطون واحدًا تلو الآخر.

ولكن ما الذي حدث حتى تصلَ البلاد إلى هذا الوضع؟ بدأت المأساة بتراجع منسوب النيل، حيث لم يهتم حينها الحاكم ومجلسه بالأمر، ظانين أنه تراجع كالمعتاد وسيعود النيل لمنسوبه مرةً أخرى، ويُذكر أن الحسن

follow on telegram: @librarytn

بن الهيثم قد زار مصر واقترح على الخليفة قبل الأزمة بناء سدٍّ على النيل لحماية مصر من الجفاف، ولكن اقتراحه قد قُوبلَ بالرفض بسبب تكلفته.

كانت أم الخليفة التي كانت تُدعى «السيدة رصد» المسيِّر الفعلي لأمور البلاد من خلف الستار، تتحكم في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ منذ صغر المستنصر بسبب وصايتها عليه حين تولَّى الحكم، فكانت تُعيِّن وتخلع الوزراء حسب أهوائها الشخصية، حتى إن بعض الوزراء كانوا يتغيَّرون بشكلٍ أسبوعيٍّ وأحيانًا بشكلٍ يوميٍّ، فكيف لوزيرٍ يُدرك أنه من الممكن ألَّا يبقى في منصبه لساعات أن يعبأ بشؤون الدولة؟!

كانت الطامة الكبرى تكمُن في جيش الخليفة، حيث إن الجيش كان يتكون أغلبه من جنود مرتزقة من البربر والترك والسودانيين، وذات يوم حدث نزاعٌ بين فِرَق الجيش فتحالف الترك والبربر ضد السودانيين وطردوهم إلى الصعيد، وبسبب سُخْط الجنود السودانيين على ما حدث لهم عاثوا في الأرض فسادًا بمجرد وصولهم إلى الصعيد، فأصبحوا ينهبون ويسرقون ما تصل إليه أيديهم، ويفسدون في الأرض ويخربون ما تبقَّى حتى انعدم الأمن في الصعيد، ولم يكتفوا بذلك فأفسدوا طرقَ الرَّي القادمة من الصعيد فتدهورت أزمة المياه أكثر فأكثر وانعدمت التجارة، وسرعان ما انقلب الجنود الترك على البربر فطردوهم إلى الوجه البحري، فتمزَّقت البلاد بين طوائف الجنود، وانقطعت التجارة بين الوجه البحري والقاهرة والصعيد فشحَّت البضائع، وإن وُجِدَت تضاعف سعرُها لأضعاف.

سيطر الجنود الترك على القاهرة ووجدوها فريسةً سهلةً لهم فنهبوا الخيرات وروَّعوا الأهالي، حتى إنَّ قصور الخليفة نفسه وعائلته لم تسلم منهم فسلبوا منها ما وصلت إليه أيديهم.

أحسَّ التجار بالأزمة المُقبلة على البلاد فأرادوا أن يأخذوا جزءًا من التَّركة، فاحتكروا البضائع من الأسواق وملؤوا خزائنهم بها حتى يتحكموا

follow on telegram: @librarytn

في الأسعار وقت الحاجة، فيحققوا من ورائها أضعاف الربح، ولكن ما لم يكن يعلمه التجار أن بفعلتهم هذه كانوا يدفعون البلاد إلى مصيرٍ لم يكن ليخطر ببال أكثر الناس تشاؤمًا.

استمرَّ منسوبُ النيل في الانحسار حتى جفَّ النيلُ تمامًا، وأمسكت السماء أمطارها فَعَمَّ القحط البلاد وجفَّت معه المزروعات، وفسدت المحاصيل ونفقت الحيوانات بسبب نقص الغذاء والماء، فانتشر الجوع في البلاد، وانعدم الأمن والأمان، وتضاعف سعر البضائع عشرات المرات إن وُجِدت، حتى وصل سعر رواية الماء إلى دينار، وسعر رغيف الخبز إلى خمسة عشر دينارًا، البيضة الواحدة لعشرة قراريط، وإردب القمح لثمانين دينارًا.

استمرت الأسعار في الارتفاع حتى نفدت البضائع من عند التجار، وأصبح المال بلا قيمة مهما كثُر أمام لقمة من رغيف، وكثرت الحوادث في البلاد، فيحكى أن ابنة أحد الأثرياء أصابها وأبناءها الجوعُ الشديد، فأخرجت الشكمجية الخاصة بها وظلت تقلِّبُ في حُليِّها ومجوهراتها حتى استقرَّت على عقدٍ ثمينٍ تملكه تبلغ قيمته الألف دينار، أخذته وظلَّت تجوب به القاهرة باحثةً عمَّن يشتريه، لكن الناس كانوا قد زهدوا الذهب فلم تعد أموال الدنيا كلها قادرة على إشباع جوعهم فلم تجد مَن يشتريه، وبعد محاولات استمرت إلى ساعات وافق أحد التجار أن يبادلها العقد مقابل كيسٍ من دقيق.

أخذته السيدة فرحةً به، فسينام أبناؤها شَبْعَى حتى ولو ليومٍ واحدٍ، وخرجت من عند التاجر فرآها الجوعى في الطريق، تكاثر الناس عليها حتى سلبوها الكيس رغم محاولاتها الدفاع عنه التي باءت بالفشل، وجدت السيدة نفسها ستعود لأبنائها خالية الوفاض فتخلت عن وقارها وصارعت الناس على الكيس، فكان كلُّ ما استطاعت الحصول عليه مقدار قبضة

follow on telegram: @librarytn

يدٍ من الدقيق أخذته وعادت للمنزل، كان ما حصلت عليه يكفي لصنع رغيفٍ واحد، فخبزته وأخفته في ملابسها وخرجت من منزلها حتى وصلت بالقرب من قصر الخليفة ووقفت تنادي على الناس قائلةً: «يا أهل القاهرة، ادعوا لمولانا المستنصر بالله الذي أسعد الناس في أيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقوَّمت على هذه القرصة بألف دينار».

ومن الحوادث أيضًا في هذه الفترة، يُحكى أنه كانت هناك حارة من أكثر حارات مدينة الفسطاط ثراءً ورُقيًّا، وكانت معروفة بثراء ساكنيها سُميَت بحارة الطبق، والسبب في التسمية أنه عندما اشتدَّ الوضع بالناس ولم يجدوا ما يأكلونه، وباع أهل الحارة التي كانت مكونة من عشرين بيتًا تبلغ قيمة البيت الواحد أكثر من ألف دينار حارتَهم كلها مقابل طبقٍ من الخبز، كان نصيبُ كلِّ بيتٍ في الحارة هو رغيف واحد، فأصبح اسم حارة الطبق ملازمًا لها.

استمرَّ الوضع في التدهور كلَّ يومٍ أكثر من سابقه فأصاب وحشُ الجوع الجميعَ، حتى الخليفة نفسه مسَّه الجوع بعدما فرغت خزائنُهُ من الذهب، وفرغ إسطبله من الخيول التي اضطر لأكلها، وباع الرُّخام الموضوع على قبور آبائه وأجداده ليشتري به الطعام حتى نفد وأوشك على الهلاك، لولا أن ابنة أحد الفقهاء رقَّت لحاله فأصبحت تتصدق عليه برغيفين كلَّ يومٍ حفظًا للمستنصر حياته.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدِّ ففرغت القاهرة من الطعام، ولم يجد الناس ما يشترونه حتى وإن ملكوا المال، فاضطروا إلى أكل قطط وكلاب الشوارع، وامتهن البعضُ حرفةَ صيدِ الكلاب وبيعها، حتى وصل سعر الكلب الواحد إلى خمسة دنانير، واستمرَّ سعرُها في الارتفاع حتى نفدت الكلاب والقطط من الشوارع أيضًا.

follow on telegram: @librarytn

هاجرت النساء حاملات أبناءهن وما تبقَّى لهن من حياةٍ من مصر صوب بغداد والشام، ساعيات خلف أمل أن يجدن ما يحفظ حياة أبنائهن، هلك في هذه الشدة أكثر من ثلث سكان مصر، ولم يتخيل أحدٌ أن الوضعَ من الممكن أن يسوء أكثر من هذا، ولكن ما لم يكونوا يعلمونه أن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد.

ففي أحد الأيام وصلت إلى وزير الخليفة أنباءٌ عن وقوع حادثةٍ كبيرة في إحدى حواري القاهرة فذهب يتفقَّدها، راكبًا على ظهر بغلته الوحيدة المتبقية بعدما فرغ الإسطبل الخاص به بين موت الدواب أو أكلها ليسد بها جوعه، وعندما وصل إلى موقع الحادث أوكل غلامه بحراستها حتى يعود، كان الغلام ضعيف الجسد صغير البنية، وعندما عاد الوزير وجد ثلاثة من الشباب قد هاجموا الغلام الصغير وضربوه وأخذوا منه البغلة وذبحوها وأكلوا لحمها.

استشاط الوزير لمَا رأى وأمر الجنود بالقبض على الشبان الثلاثة، وأمر بإعدامهم وتعليق أجسادهم على أسوار القاهرة ليكونوا عبرة لمن تُسوِّل له نفسه التعدي على ممتلكات الوزير، ظلَّ الشباب يتوسَّلون طالبين الرحمة لكن الوزير لم يهتم بتوسلهم ونفَّذ فيهم حكمَ الإعدام، وعلَّق أجسادهم أمام العامة، وفي الصباح قرَّر الوزير زيارة موقع الإعدام وعندما وصل لم يجد أجسادَ الشباب، وإنما وجد هياكلَ عظمية معلقةً على السور حيث أكل الجوعى أجسادهم عندما حلَّ الليل.

كانت هذه الحادثة جرس إنذارٍ بتحولٍ كبيرٍ في هذه الفترة، ونشوء ظاهرةٍ لم ولن تعرف مثلها مصر مرةً أخرى، حيث ظهرت جماعة من الناس بدأت تتغذى على أجساد الموتى، ونبشوا القبور وأخرجوا ساكنيها، فأصبح الناس لا يدفنون موتاهم، بل تجاوزوا هذه المرحلة إلى أكل الأحياء أيضًا، فانتشرت حوادث الخطف في القاهرة وأصبح الشخص لا يأمن على

follow on telegram: @librarytn

نفسه أو أهله الخروج إلى الشوارع، حتى إنَّ هناك زقاقًا أصبح معروفًا بزقاق القتل، لأنَّ ساكني الزقاق كانوا يلقون الخطاطيف من النوافذ لاصطياد المارة من أجل أكلهم، فبلغ الناس من شدة الجوع أن يأكلوا أبناء جنسهم، وأمسى أهل مصر مرعوبين من مستقبلٍ مظلم لا يعرفون ماذا سيُخبأ لهم فيه.

***

في شارع المعز لدين الله أرقى شوارع القاهرة في تلك الحقبة، وداخل أحد القصور الفارهة التي كانت مُطلة على الشارع وقصر الخليفة مباشرةً، سار أحد الجنود مهرولًا في ردهات القصر والقلق جليٌّ على وجهه، كانت هيئة القصر توحي بأنه لم يتأثر بالشدة التي كانت تعانيها البلاد، محتفظًا بكلِّ تُحَفِهِ ومقتنياتهِ الثمينة، ومن الطبق المملوء بأشكال وألوان الفاكهة، في حين أن الناس بالخارج لا يجدون شربة ماء يروون بها ظمأهم، وكيف يتأثر القصر وهو مملوك للسيد عمران الأشهب كبير تجار القاهرة وأحد أبرز أعيانها.

صعد الجندي إلى الطابق الثاني، وسار في ممرٍّ طويل ينتهي بحجرةٍ ذات بابٍ مزخرف بشكلٍ لافتٍ، طرق الباب فأذِنَ له بالدخول. داخل الغرفة كان يقف رجل قارب الأربعين من عمره، طويل القامة، عظيم البنية، يرتدي جلبابًا فاخرًا أخضرَ اللون، ومن فوقه عباءة بيضاء تبدو من هيئتها أن سعرها يكفي لإطعام حي بأكمله، ذو لحيةٍ شديدة السواد إلا من عند الذقن، وأسفل الفم كانت شديدة البياض فكانت السبب في تسميته بالأشهب تشبيهًا بالخيول الشهباء.

وقف الرجل يتطلع من شرفة غرفته إلى القاهرة التي كانت أجمل مدن الأرض منذ بضع سنوات، المدينة التي كانت لا تنام أصابها شبح السكون،

follow on telegram: @librarytn

سكون مُوحش مُقبض للقلب بعدما هجرتها حتى الحيوانات الضالة في الشوارع، ولم يتبقَّ بها إلا الجوعى ملقين على جوانب الطرق، وجثث الموتى قد سبق العفن إليها فلم تعد صالحة للأكل.

كان يراقب دخانًا يتصاعد من أحد البيوت في طرف المدينة، لم يكن دخانَ طعامٍ أو دخانَ مِدفأة، فهذه رفاهية لم يعد يملكها العامة الآن، كان دخانًا لمنزلٍ يحترق ولم يقوَ أحدٌ على إطفائه، ولم يكن هناك من ماء لإطفائه فتركه الناس يلتهم البيت بساكنيه لعلَّه يرحمهم من شقائهم.

كيف تحوَّلت القاهرة في وقت قصيرٍ كهذا من عروس مدن الأرض وأكثرها جمالًا وبهاءً إلى عجوزٍ بلغت أرذل العمر بهذا الشكل؟!

«ما الأمر الذي استدعى مجيئك إلى غرفتي؟» قالها عمران الذي لم يلتفت إلى الجندي الواقف عند الباب، وظلت عيناه مُعلَّقةً على القاهرة.

- سيدي عمران، وصلتنا بعض الأنباء أن اللصوص قد هاجموا منازل كبار التجار في مدن الفسطاط والقطائع والعسكر والمناخة، واستولوا على كثير من ممتلكاتهم، وقتلوا بعضًا منهم، لم تعد القاهرة آمنةً عليك يا سيدي.

كان عمران يفكر فيما فعله هو والتجار وكيف أوصلهم إلى هذا الوضع، عرف عمران طعم الجوع والوحدة من قبل فقرَّر أن يبقى شبعانَ ومحاطًا بعائلةٍ كبيرةٍ إلى الأبد.

جُلب عمران إلى مصر عندما كان طفلًا صغيرًا لم يتجاوز السنوات السبع، أمضى سنواتٍ مع سيده كان يُذيقه فيها العذاب، يُجِيعه ويُهينه ويحبسه بالأيام في غرفة مظلمة دون طعام لأتفه الأسباب، حتى شعر أن الفتى سيوشك على الهلاك فباعه في سوق الرقيق.

ظلَّ الفتى في السوق لأيام عرف فيها معنى الإهانة والجوع الحقيقي، لم يرأف أحدٌ لحاله حتى برغيف، ولم يعطف عليه أحدٌ، بل تحاشاه الناس

follow on telegram: @librarytn

وتجنَّبوه، فنما بداخله حقدٌ تجاه أهل المدينة وظلَّ هكذا حتى ابتسم له الحظ بعد سنوات من العذاب، فاشتراه أحدُ أمراء الفاطميين حيث نشأ في قصره حتى اشتدَّ عودُه فتولَّى تجارة سيده، وفهم أصول التجارة وجاب البلاد فاكتسب معها الخبرة، ونمت بسببه تجارة سيده لأضعاف فقرَّر سيده تحريره وجعله مساعدًا له.

وفي أثناء تجارته تعرَّف على صديق عمره الذي لم يفترقا عن بعضهما وصارا مثل الإخوة، والذي كان يُدعى «سليمان الأرمدي» شاركه في كلِّ شيءٍ سفرِهِ ومجلسِهِ وتجارتِهِ، بل اشتدت الرابطة بينهما أكثر عندما تزوج عمران من أخت صديقه سليمان، وأنجب منها العديد من الأبناء حتى مات السيد الذي أوصى لعثمان أن يرثه، فلم يكن له وريثٌ.

ورث عمران سيده وبسبب ذكائه استطاع أن يزيد ثروته أكثر فأكثر ووسَّع تجارته حتى أصبح أحد أكبر تجار القاهرة، واكتسب مكانةً مرموقةً في بلاط المستنصر بالله.

ما حدث لعمران في طفولته جعل لديه قناعة تنمو وتترسخ بداخله بأنه «لا شيء في العالم يستحق أن يهتم به سوى أبنائه وعائلته»، فكان على استعدادٍ أن يضحي بأيِّ شيءٍ، ويفعلُ أيَّ شيءٍ في سبيلهم دون تردد أو تأنيب ضمير.

وظهرت بوادر الأزمة فعرف كيف يستغلها عمران جيدًا لمصلحته ومصلحة عائلته، اشترى كلَّ الغلالِ والقمحِ والدقيقِ من الأسواق، وملأ بها مخازنه عن آخرها حتى حلَّ القحط على البلاد، فأصبح يتحكم في الأسعار كيفما يشاء، ويبيع السلعة بأضعاف ثمنها فجنى من هذا ثروات طائلة كما فعل مثله أغلب التجار بما فيهم سليمان صديقه.

أدرك التجار متأخرًا بشاعة ما فعلوا، وأنَّ ما ارتكبوه كان أحد الأسباب التي ألقت بالبلاد إلى الهاوية وإصابتها بالمجاعة، حتى انتشرت الأخبار

follow on telegram: @librarytn

بأنَّ الخليفة المستنصر بالله أرسل في استقدام «الأمير بدر الدين الجمالي» من الشام ليتولى منصب الوزارة، وأعطاه الصلاحيات كافة لإنقاذ البلاد مما أصابها من خراب.

القائد بدر الدين الجمالي كانت أخباره قد سبقته إلى مصر؛ حيث تَحَاكى الناس بعدله وتغنَّوا برحمته مع الضعيف، وشدته وحزمه مع الظالم في الوقت نفسه، وأنه لا يترك تاجرًا في المدينة احتكر سلعةً وسبَّب أذًى للناس إلا وواجهه بالعقاب الشديد، وأنه سيأتي عازمًا على تخليص البلاد ممن كانوا السبب فيما وصلت إليه وعلى رأسهم التجار الجشعين، فأدرك عمران أن مصيره في ظلِّ وجود هذا الوزير سيكون مُظلمًا فإما أن يُقتل، وإما أن يُسجن، وإما على الأقل أن تُصادر أمواله وأملاكه، فلم يكن هناك مفرٌّ من الرحيل من القاهرة، ولكن هل هناك لعمران بعد القاهرة من مكان؟!

المدينة التي شهدت فقره وتعبه وغناه وزواجه ومولد أبنائه سيتركها الآن بعدما كان أحد أسباب خرابها لينجو بحياته، أفاق من أفكاره والتفت إلى الجندي الواقف، وقال في هدوئه المعتاد: «أخبر الجميع أن يُجهِّزوا أنفسهم؛ سنرحل مع الفجر».

مع الفجر خرج عمران الأشهب وصديقه سليمان الأرمدي وعائلاتهما وحرَّاسهما وخَدَمهما وجواريهما، وكلَّ ما استطاعا حمله من أموالٍ ومقتنياتٍ ثمينةٍ ومُؤَنٍ، متوارين عن أعين الناس بما تبقَّى من ظلمة الليل، ومهتدين بما بدأ يظهر من نور الشمس.

عبروا أبواب القاهرة التي كانت تَدَاعت، وساروا مبتعدين عنها حتى أوشكت أن تختفي القاهرة عن أعينهم، فوقف عمران يتأملها وبجانبه سليمان، تنهَّد عمران وقال: «آهٍ يا قاهرة، كم أنت جميلة في هدوئك، ومخيفة في غضبك، وقاسية في تقلبك! قاهرة للكلِّ أعدائها وأبنائها».

follow on telegram: @librarytn

قال سليمان الذي نال منه تأنيب الضمير في الشهور الماضية متسائلًا: «تُرى هل ستغفر لنا القاهرة ما فعلناه بأهلها؟».

ليردَّ عمران دون أن يظهر عليه انفعالٍ: «إذن علَّمتني الأيام شيئًا يا صديقي وهو ألَّا أهتم بشيءٍ سوى هؤلاء».

وأشار إلى عائلته والإبل المحملة بأمواله، ثم أردف قائلًا: «كلُّ شيءٍ يهون في سبيل هؤلاء، أمَّا الناس فلا تقلق فسرعان ما سينسون عندما تنجلي المحنة لن يتذكروا فعلتنا، بل لن يتذكرونا من الأساس».

فسأله سليمان: «هل تظن أن هذه المحنة ستنجلي؟».

ليردَّ في ثقة: «ستنجلي، فمع كثرة أسفاري، أيقنت أنه لا توجد مدينة بارعة في النهوض من جديد مثل هذه المدينة».

همهم سليمان محدثًا نفسه: «ولكن هل يا تُرى إذا نَسِيَ الناس فهل ستنسى ضمائرُنا؟».

استمرَّ الركب في طريقهم قاطعين الصحراء حتى وصلوا إلى شاطئ البحر، حيث كانت هناك سفن مملوكة لعمران الأشهب كان يستخدمها في التجارة، مجهزة في انتظارهم فركبوها وأبحرت بهم على غير هدى، لا يعلمون أين ستكون وجهتهم في أرض الله الواسعة، كلُّ ما يهمهم أن يبتعدوا عن قبضة بدر الدين الجمالي، والجحيم الذي ينتظرهم في القاهرة.

ظلَّت الأمواج تقلب السفن لساعات ترتفع وتهبط بهم كيفما تشاء، وعمران يقف عند مقدمة السفينة أمامهم يفكر إلى أين ستقوده هذه الأمواج، وهل ستكون الأرض الجديدة رحيمة بهم أم لا؟ حتى ظهر من بعيد شبح جزيرة ما، فصاح عمران في قائد السفينة قائلًا: «توجَّه صوب هذه الجزيرة».

أدار القبطان دفَّة السفينة نحو الجزيرة وأبحروا تجاهها، ليبدأ معها فصلٌ جديدٌ من حياة عمران الأشهب وأبنائه.

follow on telegram: @librarytn

(2)

"تفيد بإيه إيه إيه يا ندم يا ندم يا ندم...
وتعمل إيه إيه يا عتاب".

انطلق صوت أم كلثوم من مذياع سيارة أُجرة كانت تقطع الصحراء كأن لا نهاية لطريقها، وسائقها يدندن على أنغام الست، مؤكدًا للركاب أنَّ الفنَّ لم ولن يأتي بمثلها، وداخل السيارة كان يجلس شابٌّ في السابعة والعشرين من عمره، طويل القامة، ذو لحية نابتة ويرتدي نظارة دائرية العدسات انحسرت إلى مقدمة أنفه، ويسند رأسه إلى شباك السيارة، ينظر إلى الرمال الممتدة والجبال التي كادت تبلغ عنان السماء في شرود، يفكر فيما فات من حياته وفيما هو قادم.

كان الشاب يُدعى «يونس»، طبيبٌ في أحد المستشفيات القديمة، مات أبوه وهو طفل لم يبلغ السابعة، وماتت أمه بعدما التحق بكلية الطب بسنةٍ واحدة، فعاش وحيدًا بعدما نسيه أغلب أقاربه، ومثله كمثل الكثير من الشباب غيره تخرج ليعمل في أحد المستشفيات التي أعطته أجرًا لا يُرضي

follow on telegram: @librarytn

طموحه، أحبَّ فتاةً لم يستطع الزواج بها بسبب عدم جاهزيته فتزوجت بشخصٍ آخرَ، لم يكن كثيرَ الأصدقاء، وحتى أصدقاؤه القلائل باعدت الأيام بينه وبينهم، منهم مَنْ سافر ومنهم مَنْ أخذته دوامة الحياة. سنوات من العمر تمر وتمر معها أحلام وطموحات لم تتحقق، والسؤال الذي لم يفارقه لحظة واحدة: «هل سأفعل شيئًا يُخلِّد ذكرى بين الناس، أم ستمُرُّ السنوات بي حتى أموت وأُنسى كما نُسي الكثيرون؟».

ظلَّ يعمل في وظيفته حتى أتاه ذات يوم عرضٌ من شخص يُدعى «رضوان»، عرض عليه أن يكون الطبيب الخاص لأحد الأثرياء الذي يعاني مرضَ السرطان مقابل أضعاف ما يتقاضاه من وظيفته الحالية، الرجل الثري كان يرفض العلاج، ولكن كان ما يريده هو مُسكِّنًا لآلامه، ووجود الطبيب للتدخل إذا ما طرأ أمرٌ عاجل.

«وعاوزنا نرجع زي زمان... قول للزمان ارجع يا زمان».

كما يُقال: الحياة فُرصٌ، ويونس لم يكن قطُّ بارعًا في استغلال الفرص، كانت مشكلته في التردد، الخوف من المجهول حيث لم يكن المجهول يحمل الفرحَ له عادة، ففضَّل عدم المخاطرة في حياته، لكن الفرصة هذه المرة مختلفة، ستغنيه عن التعب وستقصِّر عليه المسافة، خاصةً أنه لم يعد هناك ما يخاف عليه، فتمسَّك يونس بالفرصة وقَبِل العرضَ لعلَّه يكون السبيل لحياةٍ جديدة يشعر فيها بنفسه، وفي حقيبة سفر كبيرة وضع ملابسه وكتبه، والصورة الوحيدة التي تجمعه بوالديه، وما تبقَّى له من أحلام وأمل في الحياة، وقَبِلَ بوظيفة لا يعلم عنها الكثير سوى أنها ستحقق له ولو جزءًا مما يتمنى.

وصلت السيارة التي تقلُّ يونس إلى وجهتها، مدينة ساحلية قليلة البيوت قديمة توحي بأنها منازلُ وورشٌ للعمال في هذه المنطقة وليست منطقة سكنية، الصحراء تحدها من كلِّ جانبٍ، وعند نزوله من السيارة في

follow on telegram: @librarytn

مكانٍ تستطيع أن ترى البحر عن قرب منه، وجده بانتظاره... رضوان، ولكن بهيئةٍ مختلفة عما رآه عليها من قبل.

كان رضوان طويل القامة وعريض الكتفين، تشعر من هيئته أنه مصارع يتأهب للفَتْكِ بمنافسه في الحَلَبة، ذا حاجبين كثيفين أوشكا أن يتصلا ببعضهما، ولحيةً شديدة السواد إلا من عند الذقن وأسفل الفم فكانت بيضاء كالثلج، كان يرتدي جلبابًا أبيضَ تعلوه عباءة مُطرَّزة بخيوطٍ من ذهب، وحول رأسه لُفَّت عمامة تحمل لون العباءة نفسها، كانت هيئته الحالية توحي بأنه هارب من أحد الكتب التاريخية.

«حمدًا لله على سلامتك يا طبيب، أذكِّرك باسمي أنا رضوان الأشهب، سنذهب الآن لنستقل سفينة ستنقلنا إلى مدينتنا، اتبعني..». أطلق كلماته وانصرف دون أن يمهلَ يونس فرصةً للردِّ، فتبعه يونس حتى وصلا إلى الشاطئ، ولكن رضوان لم يتوقف سار بمحاذاة الشاطئ حتى ابتعدا عن المنازل الصغيرة، ليجد يونس نفسه أمام مرفأ صغير ترسو بجانبه سفينة قديمة الشكل، ولكن محتفظة بحالتها.

صعد يونس إلى السفينة ليجد عليها خمسةً من طاقمها، ألقى السلام عليهم فلم يرد عليه أحد منهم، ليسرع رضوان قائلًا: «معذرةً يا طبيب، ولكنهم غير معتادين على التعامل مع الغرباء عنهم».

أشار رضوان إلى رجاله فرفعوا المرساة، وأنزلوا الشِّرَاع لتُسلِّمَ السفينةُ نفسها للرياح وتنطلق قاطعةً مياه البحر، كان رضوان قليل الكلام للغاية، ولكن يونس استطاع أن ينتزع منه بعض المعلومات وهي أن الشخص الذي سيذهب إلى الإشراف على علاجه هو والد رضوان، والذي يُدعى «عيَّاش»، وفهم منه أن والده يعدُّ كبير المدينة، وكلُّ مَن بها يُكِنُّ له كلَّ الاحترامِ ولا يعصون له أمرًا.

follow on telegram: @librarytn

استمرت السفينة في الإبحار لساعات حتى ظهرت جزيرة في وسط البحر، لينادي أحد أفراد الطاقم: «وصلنا إلى جزيرة أزمور يا سيدي».

وصلت السفينة لترسو على مرفأ في مقدمة الجزيرة بجانب عدة سفن أخرى تشبهها، هبط رضوان من السفينة ومن خلفه يونس فتبعه حتى هبطا من المرفأ. كانت هناك عربةٌ فاخرة لم يُرَ مثلها إلا في المتحف، تُجَرُّ بخيولٍ عربيةٍ بيضاء اللون كأنها من قصص ألف ليلة وليلة تنتظرهم عند المرفأ، ومع العَرَبة كانت هناك فرقة من الحرس موحدين الزي يرتدون بنطالًا فضفاضًا وقميصًا يعلوه صدرية مخططة وعمامة ملفوفة على رؤوسهم بإحكام، وينتعلون حذاءً جلديًّا يقترب من الرُّكبة، ويتدلى من خصر كلِّ واحدٍ منهم سيفٌ. بمجرد رؤيتهم لرضوان ضربوا الأرض بأقدامهم مؤدين له التحية العسكرية، وفتح أحدهم باب العربة لرضوان، فصعد وأشار إلى يونس فصعد خلفه، وبدأ الشكُّ يتسرَّب إلى نفسه مَنْ هذا الشخص الذي أتى معه.

انطلقت العربة وأخذت الخيول تضرب بسنابكها حجارة الأرض التي رُصِف بها الطريق، لم يصدق يونس ما تراه عيناه، مدينةٌ عظيمة لم يُرَ مثلها في حياته، تبدأ بشارعٍ كبير، ممتدٍ من المرفأ وحتى قصرٍ عظيمٍ أبيض اللون في آخر الطريق، وعلى جانبي الشارع الكثير من القصور والمنازل الفاخرة، الحدائق الخضراء والأشجار ونوافير تملأ الطرقات، الذهب موجود في كلِّ شيءٍ، زخارف البيوت والأعمدة المُعلق بها المصابيح الزيتية والنوافير. كانت المنازل والقصور عالية البنيان والأسوار، ذات طراز إسلامي مُوحَّد، تجعلك تشعر أنك في نسخةٍ من القاهرة الفاطمية، ولكن النسخة الذهبية منها، في آخر الجزيرة يوجد جبلٌ عظيمٌ يمكن رؤيته من مكانٍ في أنحاء الجزيرة، شديد السواد يجعلك تشعر بأنه عملاق مُوكَّلٌ بحماية الجزيرة.

follow on telegram: @librarytn

تابع يونس رؤية المدينة من شرفة العربة، عيناه مأخوذتان بما تريان كأنه يحلم، جميع مَن في الشارع يقفون احترامًا للموكب الذي يمرُّ حتى وصل إلى القصر الأبيض، أعظم قصور الجزيرة، فتح الحراس الواقفون أبواب القصر، وأكمل الموكب طريقه وسط حديقةٍ كبيرةٍ ملآنة بالأشجار والمزروعات التي عرفها، والتي لم يعرفها قطُّ في حياته، حتى وصلت العربة إلى باب القصر حيث خرج الخدم مسرعين وفتحوا باب العربة.

نزل رضوان ومن خلفه يونس الذي ظل يتطلع إلى القصر أمامه، مبنى عظيم شديد الارتفاع، جدرانه رخامية بيضاء اللون تظهر لامعة عند سقوط أشعة الشمس عليها، فيُخيَّل للناظر أنها لؤلؤة هبطت من السماء، للقصر ثلاث قباب ضخمة، أوسطها أكبرها حجمًا، ومن أعلى أسوار القصر تدلَّت رايات خضراء كُتبت عليها بماء الذهب كلمة «الأشهب».

تبع يونس رضوان إلى داخل القصر، بابٌ ضخمٌ فُتح على مصراعيه، دلفا من خلاله إلى صالةٍ واسعةٍ من الرخام الأبيض، تدلت من منتصف سقفها نجفةٌ هائلة تحمل عددًا كبيرًا من المصابيح الزيتية، أثاثٌ ذهبيٌّ في كلِّ مكانٍ، ومفروش بسجاد شكله يوحي بقيمته وقِدَمِه، تبع يونس رضوان الذي لم يتوقف حتى وصلا إلى حجرةٍ كبيرة ذات باب كبير، طرقه رضوان ودخل ومن خلفه يونس.

كانت الحجرة شديدة الاتساع، الرَّايات الخضراء التي تحمل اسم الأشهب تتدلَّى من كلِّ حائطٍ يفصل بين النوافذ العالية ذات الزجاج الملون، فُرشت بسجادةٍ امتدت من الباب وحتى كرسي عظيم يشبه عرش الملوك، مصنوع من الذهب ومرصع بالأحجار الكريمة النادرة، وموضوعة عند المقعد وسادة مُخملية حمراء اللون.

وعلى جانبيه وضعت كراسي بجانب بعضها بعضًا، في صدر المجلس وعلى كرسي العرش كان يجلس شيخٌ طاعنٌ في السن شكله يُوحي أنه

follow on telegram: @librarytn

تخطَّى الثمانين من عمره، ولكن على الرغم من هذا فإنه يمتلك جسدًا يُوحي بأنه كان مفتولَ العضلات يومًا ما، يمتلك اللحية نفسها كابنه، سوداء إلا من الذقن وأسفل الفم، وهي في الأصل بيضاء صُبغت لتنقص القليل من العمر، لكن فضحتها تجاعيد الوجه. كان يرتدي جلبابًا أبيضَ، ومن فوقه عباءة خضراء وعمامة خضراء.

أحنى جذعه وأسنده إلى عصا سوداء كانت تحمل ياقوتة حمراء عند موضع اليد، وعلى الكراسي الموضوعة على جانبي المجلس كان يجلس مجموعة من الناس، يتضح من أزيائهم أنهم كبار المدينة ووجهاؤها.

تقدم رضوان حتى وقف أمام والده وأحنى رأسه احترامًا ثم قال: «السلام عليك يا أبي، لقد وصل الطبيب اليوم إلى الجزيرة، وقد أتى الآن للقائك».

رفع عيَّاش رأسه ناحية يونس الذي كان ما يزال واقفًا في آخر الغرفة، وأشار إليه بالاقتراب، فاقترب يونس وأعين جميع مَنْ في المجلس مُعلَّقة عليه حتى وقف في موضع رضوان الذي تنحَّى وجلس في أول مقعد مجاور لأبيه، فقال عياش في ودٍّ: «مرحبًا بك في جزيرتنا يا طبيب، أنا أُدعى عياش، جميع مَنْ في الجزيرة ينادونني بالعم عياش لأنني بمنزلة العم للجميع، فيمكنك أن تناديني مثلهم.

أنا كبير هذه الجزيرة وكلُّ مَنْ فيها لا يعصون لي أمرًا، لقد أطلعك رضوان على تفاصيل مرضي، أنا أعلم أني في مرحلة متأخرة، فكلُّ المطلوب منك أن تكون موجودًا وقتما يشتد عليَّ المرض لتخفف الأعراض فقط، ويمكنك أن تعالجَ مَنْ يحتاج إلى العلاج من أهل الجزيرة، وسنضاعف لك ما اتفقت عليه مع رضوان، لقد خصَّصنا لك استراحة بجانب البحر نأمل أن تعجبك».

follow on telegram: @librarytn

ردَّ يونس قائلًا: «سأكون في الخدمة وقتما يحتاجني أحد من أهل الجزيرة و...».

قاطعه العم عياش قائلًا: «هناك بعض القوانين التي يجب على جميع أهل الجزيرة الالتزام بها، فأرجو منك الالتزام أيضًا.

أولاً: لا يحق لأحدٍ من أهل الجزيرة مغادرتها إلا بإذنٍ مني شخصيًّا.

ثانيًا: وجبة الإفطار تكون إفطارًا جماعيًّا بحضور أهل الجزيرة في مبنى دار النعمة كتأكيد على كون أبناء الجزيرة عائلة واحدة، وبما أنك ستُقيم معنا فستكون فردًا من هذه العائلة فسيتوجب عليك الحضور.

ثالثًا: يمكنك التجول في أنحاء الجزيرة إلا عند منطقة الجبل، جبلُنا هذا مقدس ولا يُسمح لأحدٍ بالاقتراب منه.

وأخيرًا والأهم: ممنوع منعًا باتًّا الخروج من مسكنك من مغرب يوم الرابع عشر من كلِّ شهرٍ وحتى فجر اليوم التالي، ففي هذا اليوم من كلِّ شهرٍ يخرج وحشٌ يفترسُ مَنْ تصل إليه يداه، حاولنا أكثر من مرة أن نقضي عليه، ولكن كان يقتل الكثير من الجنود في كلِّ محاولةٍ فقرَّرنا التعايش معه، فمن أجل سلامتك وسلامة أهل الجزيرة لا تغادر مسكنك هذا اليوم».

ثم صفَّق بيديه فاقترب أحد الجنود، فتابع العم عياش قائلًا: «الآن سيريك الجندي مكان إقامتك، أتمنى أن ينال إعجابك، وفي انتظارك غدًا في دار النعمة».

خرج يونس من القصر وعقله لا يستوعب كَم هذه الأوامر والنواهي التي سمعها، هذا الرجل ليس بكبير الجزيرة، وإنما هو حاكمها وأخذ يتساءل في نفسه: «أيُّ سلطةٍ يملكها هذا الرجل، وَمَن الذي أعطاه إيَّاها، وكيف لم يسمع العالم عن هذه الجزيرة من قبل؟».

follow on telegram: @librarytn

تبع يونس الجندي وأعين كلّ مَن في الشارع تتطلع إلى هذا الغريب الذي وصل إلى جزيرتهم، لم يشعر بالألفة من ناحيتهم، لكنه أقنع نفسه أنه سرعان ما سيذوِّب الحاجز بينه وبينهم، وسيستطيع التعامل معهم مع الأيام.

استمر السير حتى وصلا إلى شاطئ البحر وهناك كان يقع المسكن الذي سيعيش فيه يونس فترة إقامته على الجزيرة. منزل مكون من طابق واحد، شديد الفخامة ولكن بشكلٍ أقل من مساكن أهل الجزيرة، مكون من غرفتين، إحداهما خارجية ليقابل فيها المرضى مزوَّدة بأدوات طبية عتيقة، لكن مظهرها كأنها لم تُستخدم قطُّ، وأخرى داخلية للنوم تحتوي على سريرٍ واسع بأعمدة نحاسية، وخزانة صغيرة للملابس، ومرآة وطاولة خشبية مُتقنة الصُّنع. يفصل بينهم صالة صغيرة وضع بها أثاثًا فاخرًا وخزانةً صغيرةً لحفظ الغذاء، كلُّ الغرفِ معلقةٌ بها مصابيح زيتية، ولا أثر لوجود الكهرباء، فسأل الجندي المرافق له عنها فبدا على وجهه بلاهة مَنْ لم يسمع هذه الكلمة من قبل.

أكمل يونس تفقد مسكنه في غرفة النوم، كانت توجد نافذة صغيرة عندما فتحها وجد عليها من الخارج سياجٌ حديديٌّ، عندما سأل يونس عن سبب وجوده أخبره الجندي بأن هذا من أجل منع الحيوانات المتجولة في الجزيرة من الدخول إلى المنزل، تركه الجندي ليستريح، وأكمل جولته في المسكن كان هناك سلَّم داخلي يقوده إلى السطح صعده يونس ليجد هناك بابًا حديديًّا يغلق مدخل السطح أيضًا.

كانت الشمس قد غربت وظهرت المدينة من بعيد هادئةً تتلألأ مصابيحها الزيتية في الظلام كأنَّها نجومٌ سقطت على الأرض، والجبل واقف شامخ أكسبه الليل هيبةً فوق هيبته.

follow on telegram: @librarytn

ظل يونس يفكر في هذا المكان الذي أتى إليه كأنه هاربٌ من الزمان، عالمٌ خاص بنفسه في هيئته ومساكنه وطبيعته وأهله وقوانينه، هل هي مدينةٌ أُغلقت على نفسها حتى نسيتها باقي الكوكب أم أن لها قصةً أكبر من هذا كله؟ وما سر العم عياش الذي يجعل الجميع لا يقدرون على النظر في عينيه، ناهيك بمعصية أمره؟ وما هذا الوحش الذي يظهر في الرابع عشر من كلِّ شهرٍ ليُجبر الناس على التزام بيوتهم؟ الكثير والكثير من الأسئلة ضجَّ بها عقله، يبدو أن هذه الجزيرة تحمل الكثير من الحكايات، ويبدو أن أيامه القادمة لن تكون بالهدوء الذي تصوره.

عزم في اليوم التالي أن يتفقَّدَ الجزيرة ويختلط أكثر بأهلها ليفهم طبيعتها، ويجد إجابات للأسئلة التي شغلت عقله، وفي أثناء تفكيره غلبه النوم لينهي بذلك يومه الأول في الجزيرة.

أر اليبداري

follow on telegram: @librarytn

(3)

طق... طق... طق... طق

استيقظ يونس على صوت طرق على الباب، نهض يونس من فراشه متثاقلًا، اتجه نحو الباب وهو يفرك عينيه، وفتح الباب ليجد الطارق هو أحد جنود الجزيرة عرفه من ملابسه.

«العم عياش يدعوك للانضمام إلى الإفطار في دار النعمة».. قالها الجندي دون تعبيرٍ على وجهه كأنه ببغاء ينقل الكلام، ليرد يونس وصوته لم يخلُ بعد من أثر النوم قائلًا: «حسنًا، سأجهِّز نفسي وألحق بك، يمكنك أن تذهب».

- لا بأس، يمكنني انتظارك، هذه أوامر العم عياش ألَّا آتِيَ من دونك.

تركه يونس على الباب وذهب، غيَّر ملابسه واستعد وخرج ليجد الجندي ما زال واقفًا كما تركه. تبعه يونس عبر طرقات المدينة، سارا لدقائق حتى وصلا أمام مبنى هائل يشبه القلعة، ذات أعمدةٍ بارزة عند الوجهة، ونقوش وزخارف في الحجارة مميزة الشكل، وكان للمبنى بابٌ عملاق مصنوع من

follow on telegram: @librarytn

خشبٍ طيب الرائحة، مزخرف بأشكال أُسُودٍ ونباتات وعبارة بني الأشهب بارزة، وتحتها الكثير من التمجيد لهم، ومن فوقه كتبت عبارة دار النعمة منحوتةً على الصخور بخطٍ مميز.

على جانبي الباب وأمام العمودين المصنوعين من الرخام الأبيض المطعَّم بالمنقوشات الذهبية المجاورين للباب، وقف جنديان منتصبان القامة يحمل كلٌّ منهما رمحًا عندما وصل إليهما يونس والجندي أدَّيا لهما التحية.

دفع الجندي الباب ودخل من بعده يونس، كان المبنى من الداخل شديدَ الاتساع، رخامٌ أبيض يفترش الأرض، وسقفٌ مزخرفٌ أخضر اللون مرفوع بواسطة أعمدةٍ مصقولة على جانبي القاعة، وبينهم وضعت الكثير من الطاولات الخشبية قصيرة الأرجل.

التفَّتْ حول كلِّ طاولةٍ عائلةٌ من عائلات الجزيرة مفترشة الأرض التي غُطِّيت بفراشٍ ناعمٍ مريح، وفي صدر المجلس كانت طاولة العم عياش، كانت موضوعة على درجة رخامية ترتفع بضع سنتيمترات عن الأرض ليكون ظاهرًا للجميع.

قطع الجندي القاعة بين الطاولات وتبعه يونس، وأعين الجميع تنظر إليه، حتى وصلا إلى طاولة العم عياش.

- تفضَّل يا طبيب انضم إلى طاولتي.

كان يجلس معه إلى الطاولة ابنه رضوان فانضم إليهما يونس، وتحوَّل المشهد إلى قصةٍ من ألف ليلة وليلة عندما صفَّق العم عياش بيده ففتحت الأبواب على جانبي القاعة ليندفع منها الخدم، حاملين الكثير من الأوعية التي تحتوي على ألوان وأصناف متنوعة من الطعام، رُصَّت على طاولات الجميع، كان الطعامُ كثيرًا لدرجة أنه يكفي لإطعام أضعاف أعداد الموجودين بالقاعة.

follow on telegram: @librarytn

وضع الخدم الطعام وانصرفوا مسرعين، وبعدهم دخلت بعض الفتيات الحسناوات وبعض الشباب حاملين دفوفًا وآلاتٍ وترية قديمة، وقف العم عياش وخاطب الجالسين أمامه قائلًا: «اليوم نجتمع كعادتنا للتأكيد على أن بني الأشهب جميعًا عائلة واحدة، ولن نضلَّ أو نشقى أبدًا ما دام بقينا على قلب رجلٍ واحد لم نفترق أو نتصارع، فعاش بنو الأشهب وعاشت بوجودهم جزيرة أزمور».

ليردِّدَ الجميع في حماس: «عاش بنو الأشهب، وعاشت بوجودهم جزيرة أزمور».

ليردف العم عياش قائلًا: «اليوم ينضم إلينا شخص مميز وهو الطبيب يونس، وكما أخبرتكم وكما اعتدت ألَّا أخفي عليكم شيئًا، فأنا مريض والطبيب موجود لمتابعة حالتي الصحية، واتفقتُ معه على تولي أيِّ فردٍ من بني الأشهب بالعلاج إذا ما أصابه مكروه، الآن يمكنكم تناول الإفطار».

وصفَّق بيديه مرةً ثانية، فبدأ الشباب الحاملون الآلات الموسيقية في العزف، وبدأت معه أجساد الفتيات بالتمايل لتسلية الحضور. كان الطعام فريدَ المذاق، وكانت نكهةُ كلِّ شيءٍ قويةً، وكان الزيتون ومنتجاته حاضريْن بقوة على طاولات الطعام مما لفت انتباه يونس، ولكن العم عياش سرعان ما أجابه كأنما قرأ أفكاره قائلًا: «أتعرف يا طبيب معنى كلمة أزمور؟».

فأجاب يونس بالنفي ليجيب العم عياش عن سؤاله قائلًا: «أزمور تعني في لغتنا القديمة الزيتون، سُميت جزيرتنا بجزيرة الزيتون لكثرة أشجاره على الجزيرة كما لاحظت».

أمسك العم عياش بإحدى حبات الزيتون من الطبق الموضوع أمامه بين أنامله ثم أردف: «هذه الثمرة معجزة بحق، فوائد لا تُحصى في كلِّ جزءٍ منها، استخدمها أجدادُنا في علاج الكثير من الأمراض، ولكن للأسف لم يكن مرضي أحدها. أتعلم يا طبيب أن شجرَ الزيتون يمكنه أن يعيش

follow on telegram: @librarytn

لمدة تقترب من 1500 عامٍ، لذلك اتخذتها أمتنا رمزًا لها للدلالة على قِدم وأصالة أمتنا وعراقتها وبقائها ما دام بقيت هذه الجزيرة وأشجارها موجودة».

- يبدو أن جزيرتكم ممتلئة بالحكايات المشوقة.
- لا تتعجل ستعرف الكثير منها مع الوقت، الآن أَكْمِل طعامك، ويمكنك أن تمرَّ على السوق لتشتري ملابس كملابس أهل الجزيرة، حتى لا يشعر أهل الجزيرة بأنك غريب بينهم.

هزَّ يونس رأسه متفهمًا وأكمل طعامه حتى أنهاه، كان الحاضرون قد فرغوا أيضًا من طعامهم، فأشار العم عياش إلى الخدم فهرعوا إلى الأطباق والأوعية حملوها وخرجوا من الأبواب التي أتوا منها، ودلف بعدهم فريقٌ آخر من الخدم يحمل كؤوسًا لمشروبات للجميع فشربوها، ووقف العم عياش وخاطب الجميع مرةً أخرى: «الآن يمكنكم أن تبدأوا يومكم، ومباشرة أعمالكم».

فبدأ الجميع بالخروج تدريجيًّا من القاعة، شكر يونس العم عياش، وانصرف هو الآخر عائدًا لمسكنه، لعلَّ يأتيه مريض أو متوعك في حاجة إلى المساعدة، مرت ساعات ولم يطرق بابه إنسان واحد لا مريضًا ولا حتى طالبًا للمشورة، حتى أتت الساعة الثانية بعد الظهر كان الملل قد تملَّك منه فأقفل المَسْكن وتوجَّه ليستكشف المدينة.

كانت المدينة تتكون من شارعٍ رئيسي به قصر العم عياش ودار النعمة وقصور باقي بني الأشهب، ويتفرَّع من هذا الشارع عددٌ من الشوارع الأخرى الأصغر منه، كان أكبرهم هو شارع السوق.

سار يونس في المدينة حتى وصل إلى شارع السوق، كان الشارع مقسَّمًا لعددٍ من الدكاكين المتراصَّة على جانبي الشارع، كانت ذات طرازٍ موحد وقديم للغاية، ذات أبوابٍ خشبية ومرفوع أمامها مظلة قماشية

follow on telegram: @librarytn

مستندة إلى قوائم من الخشب، ولكن على الرغم من قِدَمها فكانت هيئة الدكاكين توحي بثراء أصحابها.

نظر يونس إلى تلك اللوحات المعلقة فوق كلِّ دكانٍ، كان أحدها يحمل كلمة «لحام» وآخر «إسكافي»، وآخر «صائغ» وآخر «بقال»، حتى وصل إلى دكانٍ عُلِّقت فوقه لوحةٌ كُتب عليها «ترزي».

كان صاحب الدكان رجلًا طاعنًا في السن وشديد البدانة، جالسًا على كرسي وقدمه ممتدة على كرسيٍّ آخر أمامه، وكرشه تعلو فوق بطنه الممتد كأنه جبل.

نادى يونس على صاحب الدكان فنظر إليه الرجل في خمولٍ، ثم عاد وأغمض عينيه وأشار إلى الغلام الذي يعمل عنده فذهب مسرعًا إلى يونس وقال: «كيف أساعدك يا سيدي؟».

- أريد أن أشتري ملابس مناسبةً لي.
- أنت محظوظٌ يا سيدي أنك أتيت إلى دكاننا، فلدينا أفضل الملابس بأحسن الأسعار، اتبعني يا سيدي من فضلك.

تبعه يونس داخل الدكان، عرض الغلام الكثير من الأزياء أمام يونس فاختار منها بنطالًا قماشيًّا فضفاضًا داكن اللون، وحزامًا قماشيًّا أبيضَ، يُلَفُّ حول الخصر وقميصًا، ومن فوقه صدرية مخططة، وعمامة ونعل جلدي.

ارتدى يونس ملابسه فأصبح مُشابهًا لأهل الجزيرة، واستطاع الحركة دون أن تتعقبه أعين الناظرين، أكمل المسير في السوق يتفقد البضائع المعروضة، كيف لمدينةٍ أن تكون بهذا الثراء، كلُّ مَنْ بها أغنياء بشكلٍ غريبٍ، حتى إنَّه حتى الآن لم يرَ فقيرًا واحدًا؟!

follow on telegram: @librarytn

في أثناء جولته وجد نفسه يقف في ميدانٍ يقع في منتصف السوق، يتوسط الميدانَ تمثالٌ ضخمٌ من الذهب والفضة، محاط بأنواع نادرة من النباتات والورود، وقاعدة التمثال كُتب عليها بخط واضح «عمران الأشهب، مؤسس جزيرة أزمور»، ظلَّ يتطلع إلى التمثال أمامه فكيف لرجلٍ أن يؤسس كلَّ هذا وحده، لا بُدَّ أنه كان شديدَ الذكاء والثراء، لكن على الرغم من هيئة المحارب العظيم التي نُحت عليها التمثال، فإنَّ يونس شعر بعدم الارتياح عند النظر إليه، كأنَّ قلبَهُ استشعر أن خلف وجه القائد العظيم هناك أسرار أخرى.

وفجأة ارتفع دويُّ الأبواق، وأفسح الناس على جانبي الطريق لتظهر فرقة من الفرسان، ومن بعدهم تظهر عربة يعلوها تمثال لأسدٍ ذهبيٍّ، كان ذلك شعار بني الأشهب فتعالى هتاف الناس في الشارع: «عاش بنو الأشهب، عاش بنو الأشهب».

واستمرَّ الهتاف حتى غابت العربة عن الأنظار، فأدرك حينها يونس أنَّ بني الأشهب ليسوا مجرد أناسٍ مرموقين في الجزيرة أو حكامًا لها، بل وصلوا إلى درجة أشبه بالتقديس لدى أهل المدينة، تابع يونس تجواله في السوق متأملًا أحوال الناس حتى رأى مشهدًا غيَّر من رؤيته للأمور في الجزيرة.

في السوق وبالقرب من أحد دكاكين بيع الخضراوات والفاكهة، الذي كان مكتظًّا بالزبائن، لفت انتباه يونس شابًّا يرتدي ملابس غير مُهَنْدمة، ويبدو عليها القِدَم على غير عادة أهل الجزيرة، كان الشاب يراقب الواقفين بتركيز واقترب منهم في حذر، وفي خِلْسة منتهزًا انشغال التاجر وعمَّاله بالتحدث مع الزبائن، وأخذ بضع ثمرات ووضعها في جيبه وانصرف في هدوءٍ كما أتى.

follow on telegram: @librarytn

على الرغم من الفعلة السيئة من الشاب فإنَّ يونس تهلَّلت أساريره بالمشهد، أخيرًا حدثٌ يدل على أن هذه الجزيرة بها مظهر من مظاهر الحياة الطبيعية، هذا الشاب سرق، إذن هو محتاج، وهذا يعني أن هناك فقراء في المدينة، إذن هناك الكثير مثله، ولكن أين؟

تبعه يونس دون أن يشعر الفتى الذي ظلَّ يتلفت حوله كي يتأكد أنَّ لا أحد يتبعه مجتازًا الشوارع، ويونس على أثره حتى أحسَّ الشابُ بأنَّ أحدًا يتتبعه، فبدأ بالركض فركض يونس خلفه وهو يصيح بأعلى صوته: «انتظر لا تخف.. انتظر».

ولكن دون أن يتلقى إجابةً من الفتى الذي كان قد أطلق ساقيه إلى الريح، ظل يونس يتبعه حتى وصل الفتى إلى غابة من أشجار الزيتون فاخترقها دون أن يترك أثرًا، ليقف يونس أمام الأشجار آسفًا بعدما ضيَّع صيده.

عاد يونس من الطريق نفسه، كانت الشمس قد أخذت في الغروب وأشعل الناس المصابيح الزيتية أمام بيوتهم، وذهب الأغلب إلى بيوتهم، وذهب البعض إلى جلسات السمر التي كانوا يقيمونها في مقاهي المدينة. وفي أثناء عودة يونس سمع صوتَ نغمات الموسيقى تنبعث من أحد الشوارع فتبعها حتى وصل إلى مقهى كان يجلس عليه أناسٌ من أعمار متفاوتة لكن كان أغلبهم من الشباب، وفي ركن المقهى كان يوجد بعض الخدم والجواري الممسكين بالآلات الموسيقية، وتتقدمهم جاريةٌ حسناء وتغني فيطرب لصوتها الجالسون.

جلس يونس في المقهى، كان روَّاد المقهى يتابعون حركته وظلَّ بعضهم ينظر إليه حتى بعدما جلس ولكنه تجاهلهم، كان المكان مكونًا من طاولات عديدة، فُرش عليها مفرش حريري، وبجانب كلِّ طاولةٍ عددٌ من

follow on telegram: @librarytn

الكراسي المذهبة ذات مقعد وثير، أتى صاحب المقهى إلى يونس الذي كان يتابع غناء الجارية باهتمام فقال: «ماذا أَجْلِبُ لك؟».

- كوبًا من الشاي.

ذهب الرجل ولم يعقِّب، وما هي إلا لحظات حتى عاد حاملًا صينية وضع عليها كوبًا وإبريقًا من الفضة، وضع الكوبَ والإبريقَ أمام يونس وبداخله المشروب فتأمله يونس، كوب من الفضة نُحتت عليه أشكال غصون زيتون تلاحمت معًا. كيف لمقهى عام بأحد الشوارع أن يقدِّمَ لروَّاده ما يطلبونه في مثل هذه الأكواب الثمينة؟!

كان هناك شابان يجلسان إلى طاولةٍ مجاورة، سمعهما يونس يتحدثان، كانت أعمارهما مقاربة لعمره فحاول الانضمام إليهما قائلًا: «هل يمكنني الانضمام إليكما؟».

لكنَّ أحدًا لم يُجب على يونس، ونظر أحدهما إليه نظرة استعلاء وقال: «لا نريد أن يشارك مجلسنا غرباء، مكانك ليس هنا عُدْ إلى مسكنك».

أثارت نبرة التعالي غضبَ يونس الذي كوَّر قبضته واستعدَّ ليطيح بوجه الفتى، ولكن سرعان ما تمالك أعصابه وغادر المقهى كي لا يخلق عداوةً في أيامه الأولى، فتناول مشروبه وانصرف ليقضي ليلته يفكر كيف سيعيش مع هؤلاء الناس وهو يشعر بأن وجوده غير مرغوبٍ فيه.

في اليوم التالي، وبعدما انتهى من مراسم الإفطار الإجباري، وقبل انصرافه طلب منه العم عياش البقاء حتى رحل الجميع، وأشار إلى جنوده، فخرج أحد الجنود من أحد الأبواب الجانبية، ثم عاد وبرفقته الشابين اللَّذيْن قابلهما يونس في اليوم السابق. وقف الشابان أمام العم عياش مُطأطئَي الرأسين وعلى وجهيهما علامات الخجل والندم، استدار العم عياش إلى يونس الذي تفاجأ من حضورهما وقال: «هذان الشابان قد أساءا معاملتك بالأمس في المقهى، وأَتَيَا الآن للاعتذار منك على ما بدر منهما».

follow on telegram: @librarytn

تكلم أحد الشابين وقال: «نحن نعتذر إليك يا طبيب، اغفر لنا فعلتنا».

ليردفَ الآخر قائلًا: «نحن مستعدان لتحمل عاقبة فعلتنا، وعلى استعداد لتحمل الجزاء الذي تريده».

ابتسم يونس وقال: «عفا الله عمَّا سلف، أنتما مثل إخوتي لا جزاء بين الإخوة».

همس أحد الشابين للآخر بطرف فمه دون أن يسمعه الباقون: «من المستحيل أن يكون لي أخ مثل هذا الغريب».

وجَّههما العم عياش بالانصراف فانحنيا احترامًا له وخرجا من المبنى، توجَّه العم عياش إلى يونس قائلًا: «إذا حدث لك مكروهٌ لا بُدَّ وأن تخبرني به يا طبيب».

- ولكن كيف عرفتم بالأمر؟

ابتسم العم عياش ثم قال: «لا توجد دابة تدوس أرض الجزيرة إلا ويصلني خبرها، فمن المؤكد أنني لن أغفل عن أخبار ضيفي».

- هل هذا يعني أنَّني مراقب؟

- بالتأكيد لا، فالأمر ليس شخصيًّا، ولكنَّ مكانًا أو موقعًا يقع على هذه الجزيرة فعيناي تكونان عليه، وأيًّا كان ما يحدث لك ما دام في نطاق جزيرتي فسأعرف به.

تراجع العم عياش إلى أن جلس على كرسيه وقال: «يمكنك الانصراف إلى عملك يا طبيب».

تناسى يونس الموقف وعاد إلى مسكنه. لم يأتِ إلى عيادته أحد كاليوم السابق، كأنَّ أهلَ هذه المدينة لا يمرضون فذهب ليكمل جولته في الجزيرة، عبر الشارع الرئيسي ومنه وصل إلى السوق، ظل يتفقد البضائع المعروضة حتى وجد صخبًا وضجيجًا يتعالَى في منتصف السوق، وحيث

follow on telegram: @librarytn

الصوت ازدحم حشدٌ من الناس، اقترب يونس منهم ليجد ثلاثة رجال أمسكوا الشاب الذي رآه بالأمس، وكانوا يوسعونه ضربًا وأهل المدينة يقفون يراقبون ما يحدث دون تدخل أحدٍ منهم، بل كانت ملامح الرضا على ما يفعله هؤلاء الشباب بادية على وجوههم.

تدخل يونس وحال بين الفتى وهؤلاء الشباب بعدما أوشكوا أن يقتلوه، قبل أن يرحل الشباب بصق أحدهم على الأرض بجانب الفتى وقال في غضب: «أرمديٌّ لعين».

رحل الشباب ومن بعدهم تفرَّق الجمع الذي كان يبدو عليهم الانزعاج من انتهاء القتال، أسند يونس الفتى الجريح وسار به مبتعدًا عن السوق، وجَّه الفتى إلى زقاقٍ ضيقٍ، دلفا منه إلى خلف مباني السوق بالقرب من أشجار الزيتون الكثيفة، حيث كانت تقع هناك بئر ماء أسند الفتى ظهره إلى البئر، ثم تطلع إلى يونس وقال: «شكرًا على المساعدة، أنا اسمي زين وأنت؟».

- أنت تنزف يجب أن تأتي معي إلى العيادة.

- إذًا، أنت الطبيب الجديد، اسمك يونس، صحيح؟

قام زين مستندًا إلى البئر وأدلى دلوه ليعود محملًا بالماء فاغتسل ومسح الدماء عن وجهه وملابسه، كان زين شابًّا في منتصف العقد الثالث من العمر، طويل البنية ونحيل الجسد، ولكن على الرغم من نحوله فهيئته توحي بأنه كان مفتولَ العضلات يوما ما، بشوش الوجه ذا عينين سوداوين غائرتين في محجرهما، وبشرة داكنة صبغتها أشعة الشمس وشعرًا أسودَ ناعمًا وكثيفًا ممشطًا إلى الخلف.

بعدما اغتسل وأعاد ترتيب ملبسه التفت إلى يونس وقال: «لا تقلق يا طبيب، أنا معتادٌ على هذا».

- لمَ كان يضربك هؤلاء الشباب؟

follow on telegram: @librarytn

- تستطيع أن تقول إنَّه اختلاف في وجهات النظر.

بدا على يونس عدم الفهم فقال: «لم أفهم».

ليردَّ في نبرةٍ ساخرةٍ: «هم كانوا يعتقدون أن ثمار التفاح مكانها في سلال دكانهم، وأنا كنت متأكدًا أن مكانها في معدتي».

- إذًا، أنت لصٌّ.

لم يجب زين وأكمل اغتساله ثم قال: «هناك الكثير لتعلمه عن هذه المدينة يا صديقي».

- ولو أن هذا ليس مبرِّرًا للسرقة، فأنت شابٌّ في مقتبل العمر، لمَ لا تبحث عن مهنةٍ شريفةٍ تكسب منها قوت يومك؟

ابتسم زين في سخريةٍ وقال: «ألم أقل لك إنه ما زال هناك الكثير لتعلمه... الشرف في مدينة الفسق جريمة، نحن الأرمد كُتب علينا الهوان والذل ما دام كان لنا في العمر بقية».

- ولكن اعذرني، مَنْ هم الأرمد؟

- الأرمد يا صديقي هم المعذبون في الأرض، حكايتنا تطول فسأخبرك بها فيما بعد، سيكون لنا الكثير من اللقاءات فيما هو قادم.

همَّ زين بالانصراف وقبل أن يتوارى داخل أشجار الزيتون التفت وقال: «شكرًا على المساعدة، وآسف لهروبي منك بالأمس، فقد ظننتك أحد الجنود».

واختفى داخل الأشجار تاركًا يونس دون أن يمنحه تفسيرًا لما لا يفهمه في هذه الجزيرة، بل زاد عليها الكثير والكثير من التساؤلات.

follow on telegram: @librarytn

(4)

مرَّت الأيام التالية في رتابةٍ شديدة كأنَّ اليوم نفسه يُعاد، حتى أتت إحدى الليالي وجد أحدهم يطرق الباب بعنفٍ، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ففاق من النوم مفزوعًا وتوجه إلى الباب ليجد أحدَ الجنود واقفًا والقلق واضحٌ على وجهه، سأله يونس: «ما الأمر؟».

ليردَّ الجندي والكلمات تهرب من لسانه: «العم عياش، اشتدَّ عليه الألم وأرسلوني لأطلب منك الحضور إلى القصر في الحال».

غيَّر يونس ملابسه وأخذ حقيبته وانطلق مسرعًا تجاه القصر برفقة الجندي، كان الظلام يغطي المكان إلا من أنوار المصابيح الزيتية المعلقة أمام كلِّ منزلٍ. وصلا إلى القصر فاستقبلهما رضوان وتوجهوا إلى غرفة العم عياش الذي كان صوت سعاله قد وصل إلى يونس من الطابق السفلي، وفي غرفته كان عياش يسعل بشدة وبشكلٍ متواصلٍ حتى شعر الواقفون أن رئتيه ستخرجان من صدره، ومع كلِّ مرةٍ يسعل فيها كان الدم يخرج من فمه، وكان الخدم حوله ممسكين بِقطَعٍ من القماش ليمسحوا بها الدم عن وجهه، كان الألم يشتد بالعم عياش بين لحظة وأخرى فيصرخ كالطفل الصغير، ألمٌ في العظام كأن صخورَ الجبل بأكمله قد وضعت عليه كما

follow on telegram: @librarytn

وصف. كان رضوان ابنه يقف حوله هو والحاشية ورجال المجلس ونساء القصر اللاتي سمعهن يونس وهن يتهامسن في أثناء إجرائه الفحوصات للعم عياش قائلات: «لعنة الله على هذا المرض الذي ينتقل بينهم كالميراث من الأب لابنه».

أثارت العبارة انتباه يونس ولكنه أكمل الفحص، كان يونس قد تعلَّم كيفية صنع الأدوية من الأعشاب، فطلب منهم إحضار بعض الأعشاب والمكونات، فأتى بها رجالهم في لحظات، خلطهم ببعض ووضع المخلوط في وعاء ليشربه العم عياش، وما هي إلا لحظات حتى خفَّ الألم عنه وغلبه النوم.

صحب رضوان يونس حتى باب القصر وقال: «أشكرك على عنايتك بأبي يا طبيب».

- العم عياش مريض بشدة، يجب أن يُنْقلَ إلى مشفى خارج الجزيرة.

لتتبدل ملامح رضوان إلى الصرامة وقال: «سيد الجزيرة لا يمكن أن يتركها».

- اعذرني، ولكن هل كان هناك أحد في العائلة يعاني المرضَ نفسه؟

ليرد رضوان في ضيق: «هذا المرض وراثيٌّ في عائلتنا، يتوارثه الابن من أبيه، أصيب به أجدادي بعدما تخطوا الستين من عمرهم، الآن يمكنك العودة لاستراحتك ونأسف على إيقاظك في هذا الوقت المتأخر من الليل».

عاد يونس لاستراحته وهو يتأمل حال هذه الدنيا، شخصٌ مثل العم عياش يملك الجزيرة وكلَّ ثرواتها ويأتي مرضٌ لا تشفع معه كلُّ أمواله وسلطانه ليتركه يتألم لا حول له ولا قوة كالطفل الصغير.

في اليوم التالي ذهب يونس إلى دار النعمة ليتفاجأ بالعم عياش في مجلسه لا يظهر عليه شيء من أثر التعب ولا معاناة الليلة الماضية، أشار

follow on telegram: @librarytn

إلى يونس فتقدم ليجلس بجانبه، مال ناحيته العم عياش وقال: «شكرًا على وجودك بالأمس يا طبيب، وجودك خفَّف عني الألم بشكلٍ كبيرٍ».

- هذا واجبي يا عم عياش.

وقف العم عياش أمام الجميع وخاطبهم قائلًا: «يا أهل الجزيرة، جميعكم يعلم بالمرض الذي أُصبت به، وأيضًا تعلمون أن جميع آبائي وأجدادي من قبلي قد أصيبوا بالمرض نفسه، هذا هو ثمن التضحية التي تقدمها عائلتنا من أجل الحفاظ على استقرار الجزيرة ورفعتها، جميعكم تعلمون كم أن هذا المرض مؤلم ولا يطيقه أحد، ولكنني لست هنا الآن لأتحدث عن نفسي، اليوم أنتهز الفرصة لأشكر الطبيب يونس الذي بسبب وجوده بالأمس خفَّف عني آلام المرض».

ليصفق الجميع للطبيب وتتعالى هتافاتهم: «عاش بنو الأشهب، عاش العم عياش».

ويونس جالس لا يستوعب كيف استطاع العم عياش استغلال مرضه لزيادة شعبيته بين الناس، ليقنع الجميع أنه وعائلته مختارون من السماء لحكم هذه الأرض.

بعد انقضاء وقته في العيادة ذهب إلى جولته المعتادة في الجزيرة، وعندما وصل إلى السوق وجد المشهد الذي حدث منذ أيام يتكرر، مجموعةٌ من الرجال أمسكوا بالفتى الذي تبيَّن له أنه زين مرةً أخرى، ويوسعونه ضربًا، تدخَّل يونس مرةً أخرى، فقال زين وهو مُلقى على الأرض في نبرةٍ ساخرة: «ألم أقل لك أن لقاءنا سيتجدد يا طبيب!».

قال يونس في غضبٍ موجهًا كلامه إلى الرجال الواقفين: «لمَ تستقْوون على الفتى المسكين؟ أليس في قلب أحد منكم رحمة!».

ليردَّ أحد الرجال عليه في تعالٍ شديد: «رحمة! تجاه مَنْ؟! هذا الأرمدي اللعين، سارق ويستحق ما يناله جزاءً لفعلته».

follow on telegram: @librarytn

ليصيح أحد المارة في غضب: «الطبيب يدافع عن هذا الأرمدي السارق مرةً أخرى».

ليردَّ عليه آخر: «إنه يفعلها مرةً أخرى، أنا رأيته منذ أيامٍ يحميه بعدما سرق من أحد التجار، وجعله يهرب بفعلته دون أن يلقى عقابًا».

ليقول ثالث في حسم: «لنشكوه إلى بني الأشهب لعله يرتجع عن مساندته لهؤلاء الأنجاس».

همس زين في وهن: «ارحل الآن يا طبيب، وجودك هنا سيسبب لك المزيد من المشكلات».

لم يستمع يونس إلى نصيحة زين فأسنده ورحل به مبتعدًا عن الجموع الغاضبة غير عابئٍ باعتراضهم وسبابهم الذي تطاير حتى وصل إلى مسامعه.

سارا حتى وصلا إلى البئر التي ذهبا إليها في المرة السابقة، أجلس يونس زين إلى البئر ليصمت للحظات ثم صاح في غضب: «أنا لا أفهم لمَ تفعل هذا؟».

ليجيب زين في سخريته المعتادة: «العادة تحكم يا طبيب».

تأججت نيران ثورة يونس فصاح قائلًا: «أنا لا أعلم ما الذي يدفعني إلى مساعدتك، فأرجوك أن تتخلى عن هذه السخرية الحمقاء التي ستُلقي بك إلى التهلكة».

- إذا لم أسخر مما يحدث فسأموت من القهر.

هدأت ثورة يونس بعدما استشعر الجزع في كلمات زين الأخيرة، فسأله في رفق: «لمَ حالك هكذا يا زين؟ أنا لم أرَ فقيرًا واحدًا منذ أتيت الجزيرة حتى الخدم في القصور، فلمَ السرقة إذن؟».

follow on telegram: @librarytn

امتقع وجه زين فظل يونس يرنو إليه للحظات منتظرًا الإجابة، حتى قال زين في حزن: «أخبرتك يا طبيب أن هناك الكثير من الأمور التي لا تعرفها عن جزيرتنا، أولها أن جزيرتنا ليس كلُّ مَن بها أغنياء، مجتمع الجزيرة يا صديقي مقسمٌ إلى ثلاث طبقات، بني الأشهب، وأهل الخاصة، والأرمد. أمَّا بنو الأشهب هم حكامنا وأولياء نعمتنا منذ وجدت هذه الجزيرة، ينتقل الحكم بينهم من الأب لابنه منذ عهد مؤسس الجزيرة عمران الأشهب، وأمَّا أهل الخاصة فهم باقي أهل الجزيرة أعوان بني الأشهب وخاصتهم وهم الذين يظهر عليهم الثراء ورغد العيش والترف».

سكت هنيهة ثم أردف: «أما نحن، فنحن الأرمد، أو كما يطلق علينا بعض أهل الخاصة صعاليك الجزيرة، نحن -كما أخبرتك من قبل- المعذبون في الأرض نعمل كخدمٍ لبني الأشهب ولأهل الخاصة أو بالأحرى فنحن عبيدٌ لهم، نعمل في منازلهم ودكاكينهم ونرفِّه عنهم في جلسات السمر، وفي نهاية اليوم يختارون الحِسان من فتياتنا كجوارٍ لهم لقضاء ساعات الليل مقابل فتات لطعام، أو بضع عملات لا تكفي لحياة عادلة. حتى الملابس النظيفة التي ترى الخدم والعمال يرتدونها في القصور والدكاكين لم يعطوها لهم السادة كرمًا منهم أو رحمةً بهم، وإنما كي لا تزعج مناظر الثياب البالية أعينهم ولا تشوه جمال مدينتهم».

- ولِمَ تقبلون هذا على أنفسكم؟

- جدنا سليمان الأرمدي لعنة الله عليه، هل تصدقني إذا أخبرتك أن جدنا وعمران الأشهب كانا صديقين، ولكن الطمع أعماه فحاول أن يستأثر بالسلطة من بني الأشهب وينقلب عليهم ولكنه لم يفلح، فأصبح هو ونسله ملعونين من بني الأشهب وأهل الخاصة، وقدِّر علينا أن نعيش في ذلٍّ بسبب طمعه، تخيَّل معي يا طبيب لو أن جدنا

follow on telegram: @librarytn

كان قد رضي بما قسمه الله له ولم يطمع، هل كان حالنا سيكون هكذا الآن؟

سكت الاثنان هنيهة من الوقت، ثم قطع يونس السكون سائلًا: «ولكن أين تعيشون؟ أنا أجوب الجزيرة منذ أيام ولم أرَ إلا القصور والمنازل الفارهة».

وقف زين فجأةً وقال في حسم: «اتبعني يا طبيب».

- ولكن إلى أين؟

- سأُريك الوجه الآخر من جزيرة أزمور.

تبع يونس زين إلى داخل غابة أشجار الزيتون، كانت الأشجار كثيرةً ومثمرةً وشديدةَ التقارب من بعضها كأنَّها شجرةٌ واحدةٌ، وكانت شديدة القِدم كأنَّها خُلقت مع خلق الجزيرة. كان زين يتنقل بين الأشجار بسلاسةٍ كأنه وُلِد بينها، يعرف كلَّ مسارٍ وكلَّ جذعِ شجرةٍ، ويونس يحاول مواكبته في سرعته حتى بدأ يظهر ضوء الشمس من الجهة الأخرى.

عبر زين الأشجار ومن خلفه يونس ليظهر جانبٌ آخر من المدينة لم يرَه يونس من قبل، حيٌّ شديد الفقر مكونٌ من العديد من المنازل المتهالكة المبنية من الطوب اللبن، شوارع ضيقة غير ممهدة تشعر أنها كادت تعتصر الساكنين فيها من شدة ضيقها، وأناس قست عليهم الدنيا، ظهر الفقر والجوع على وجوههم كأنه جزءٌ من ملامحهم، ملابس قديمة اهترأت وتقطعت قطعًا كأنها أمارات توحي بما عاصرته من سنين وأحداث، والملابس كانت تستر أجسادًا أصابها الوهن والنحول لأغلب مرتديها حتى إن هياكلهم العظمية بانت تفاصيلها من تحت الجلد.

«ما هذا المكان؟».. قالها يونس وهو لا يصدق ما يراه حوله، ليرد عليه زين قائلًا: «هذا هو حي الأرمد، الجانب الآخر من جزيرة أزمور يا طبيب، فمرحبًا بك في عالمنا... هيا اتبعني».

follow on telegram: @librarytn

سار زين ومن خلفه يونس في شوارع حي الأرمد يطالع المنازل القديمة ذات المصابيح الزيتية التي غطى سناجها زجاجها فأصبح الضوءُ يظهر منه بالكاد، أبوابٌ قديمة لا تحمي من شيء لهشاشتها، ولكنها تكفي لتستر من خلفها عن أعين الناس، والحق أنهم لم يحتاجوا منها أن تحمي منازلهم، فليس بها شيء ثمين يُسرق.

كان يسير متعجبًا كيف تحوي الجزيرة هذا الكم من التناقض، كيف يكون لكلِّ شيءٍ في منطقة الأغنياء نقيضه في منطقة الفقراء! ولمَ يُعذَّب هؤلاء الناس بسبب ذنب اقترفه جدهم وليس لهم ذنب فيه؟!

كانت أعين أهل الحي تتابع يونس في ترقب، نظرات لم تختلف كثيرًا عن التي كان يتلقاها من أغنياء الجزيرة، فأعين أهل الجزيرة لم تكن تألف الغريب عنها سريعًا، بجانب أن أهل الحي لم يعتادوا رؤية أحد من الأغنياء، أو حتى أحدًا يرتدي ملابس فاخرة في حيِّهم من قبل.

في الطريق كان هناك أطفال صغار يلعبون حول يونس وهو يبتسم محاولًا التودُّد إليهم، لكن الأطفال بمجرد رؤيته يقترب منهم سارعوا بالفرار ليختبئوا خلف أمهاتهم الجالسات على جانبي الطريق، ليقول زين: «هم فقط غير معتادين على رؤية الأغنياء».

أكمل زين ويونس جولتهم في الحي حتى وصلا إلى مبنى قديم من الطوب اللبن كباقي منازل الحي، له بابٌ خشبي له مصراعان دفعهما زين ودخل من بعده يونس.

كان المكان أشبه بالمقاهي الشعبية، طاولات خشبية صغيرة في كلِّ مكانٍ وبجانب كلِّ طاولةٍ عدة كراسي يجلس عليها عدد من شباب الأرمد. سار زين وبصحبته يونس إلى طاولة في أحد الأركان، ولكن ظلت أعين الجالسين تُلقي بسهامها على يونس بين نظرات متعجبة وغاضبة ومتفاجئة

follow on telegram: @librarytn

من وجوده، تطلع يونس إلى الجالسين ثم انحنى جهة زين وهمس قائلًا: «أشعر بأن وجودي غير مُرحَّب به هنا».

ابتسم زين وقال: «يحسبونك من أغنياء أزمور».

- ولكنني لا أفهم كيف الناس هنا شديدو الفقر إلى هذا الحد، والعمال في الجزيرة وفي قصور بني الأشهب لا يظهر عليهم علامات الشقاء؟
- ما دام كنت عاملًا لدى بني الأشهب أو أهل الخاصة ستعيش في قصورهم ومنازلهم حياة منعمة حتى وإن كنت تلقى منهم سوء المعاملة، يكفي أن تجد قوت يومك، وبمجرد أن تنتهي مهمتك، أو تصبح عديم النفع لهم تُهمَّش وتُنسى كأن لا وجود لك، بل يُصبح وجودك في مدينتهم عبئًا لا يتحملونه، فتُنفى إلى هنا، نحن أشبه حالًا بخيل الأمراء، تظل ترعى وتعيش في حظائرهم وتأكل من خيراتهم حتى يصيبها الهِرم أو تعجز عن أداء وظيفتها، فإما أن يكون مصيرها القتل، وإما تُطلق إلى البرية حتى يحين أجلها إن كانوا رحماء بها.

ثم سكت هنيهة وأردف بعدها: «أتعرف يا طبيب أنه كان لديَّ عملٌ من قبل، كنت أعمل في ورشة تاجرٍ للحديد كان العمل شاقًّا للغاية، أظل أجلس بالساعات أمام الكير أنفخ في النار حتى يوشك جلدُ وجهي على الاحتراق، وأطرق على الحديد عندما يحمر فأصنع منه مشغولاتٍ كثيرةً، سيوف وحراب ودروع وحتى الصحون، كنت ماهرًا في عملي للغاية، ولكن في يوم من الأيام سئم سيدي من صوت طرق الحديد وحرارة النار، فقرر تغيير تجارته فألقى خلفه ورشة الحدادة وتجارتها، واتجه إلى تجارة الخزف غير عابئ بمن تركهم في دكانه من عمال دون مصدر للرزق، ظللت أيامًا أبحث عن عمل ليكفي نفقاتي ونفقات أمي المريضة، ولكن أغلق الجميع أبوابهم أمامي حتى ماتت أمي وأنا عاجزٌ عن مساعدتها، فكرهت الحياة

follow on telegram: @librarytn

وأصبحت أتجول في الأسواق أسرق ما تصل إليه يداي لأحفظ ما تبقى من حياتي».

في أثناء حديثهما قام أحد الجالسين من رواد المكان من مقعده وتوجه ناحية طاولة يونس وزين، كان الرجل ضخمًا ذا ذراعين مفتولتين، وقدم خشبية لتعوض قدمه المبتورة. طرق أمامهما على الطاولة بعنفٍ وقال في غضبٍ مشيرًا إلى يونس: «ما الذي يفعله أحد الأغنياء في حيِّنا، ألم يكفهم سلب طاقتنا وحقوقنا فيأتون اليوم لأخذ ما تبقَّى لنا من جدران نستتر بها؟!».

- إنه ليس من الأغنياء، إنه الطبيب الجديد.

- الطبيب! إذن فهو من الأغنياء.

- إنَّه ضيفي، إذا علم بنو الأشهب بأنك أذيته لن يتركونا على قيد الحياة.

- ولو، الأغنياء غير مرحب بهم بيننا، سأشفي غليلي وليحدث ما يحدث.

همَّ الرجل بإمساك تلابيب قميص يونس وكوَّر قبضته استعدادًا لتوجيهها إلى وجه يونس، ولكن زين دَفعه ليبتعد إلى الخلف عدة خطوات، استعدَّ مرةً أخرى للهجوم على يونس، ولكن صوت طرقات على البار في أحد أركان المكان أسكت الجميع.

كان الطارق هو رجلٌ يبلغ الخمسين من العمر تقريبًا، ضخم البنية، ذو بطنٍ كبير ورأسٍ أصلع ولحية كثيفة. صاح الرجل في الجميع قائلًا: «يكفي، لا مجال للعِراك هنا».

ليردَّ الرجل الغاضب قائلًا: «ولكن يا عم بدر إنه من الأغنياء هل ستتركه يجلس بيننا هكذا وكأنه فردٌ منا؟».

ليردَّ بدر في حسم: «أنا قلت كلمة.. لا عِراك هنا».

follow on telegram: @librarytn

رحل الفتى غاضبًا وعيناه تتوعدان يونس بلقاءٍ آخر، ولسانه ينطق ببعض السباب الذي لم يتبينه سواه، التفت بدر إلى زين وقال له في نبرةٍ آمرة: «وأنت يا زين أَنْهِ ما جئت من أجله أنت وصديقك وانصرفا، أنا لا أرغب في المشكلات عندي هنا».

أومأ زين برأسه فابتعد العم بدر في الهدوء نفسه الذي أتى به، همس يونس لزين قائلًا: «أعتقد أن وجودي هنا سيسبب بعض المتاعب».

ابتسم زين وقال في سخريته المعتادة: «الحق أنه سيسبب الكثير من المتاعب وليس البعض فقط، ولكن لا تقلق فأنا هوايتي هي السعي خلف المتاعب».

شرب بضع رشفات من الشاي الذي وضعه بدر أمامه ثم أردف قائلًا: «لا تؤاخذ الفتى على غضبه منك، فما رآه من الأغنياء جعل براكين الغضب تتفجر بداخله عند رؤيتك ترتدي ملابسهم. أتعلم، هذا الفتى كان من أقوى العتَّالين في الجزيرة يحمل البضائع على ظهره طوال النهار كأنه ثور لا تنفد طاقته حتى أتى يوم من الأيام صدمته إحدى عربات بني الأشهب، ولم يكلف سائقها نفسه عناء التوقف ليطمئن على الفتى الذي هرست العربة قدمه، حتى إنه لم يجد تعويضًا منهم، أو حتى نظرة شفقة، وإنما سرَّحه صاحب عمله لأنه لم يعد ذا نفعٍ له».

عجز لسان يونس عن الكلام فسكت لحظات ثم قال: «لماذا خضعتم يا زين، لمَ قبلتم أن تتحملوا العقاب على ذنب لم ترتكبوه، لمَ تنازلتم عن حقكم وقبلتم عيشة الذل؟».

ليجيبه زين في حسرة قائلًا: «الخوف يا طبيب، الخوف استوحش في النفوس، جعل الجميع يقبلون بفتات الخبز الذي يُلقى إليهم كلَّ يومٍ خوفًا من أن يحرموا منه أيضًا، نحن لسنا بندٍّ لبني الأشهب».

follow on telegram: @librarytn

لم يعرف يونس ماذا يقول، أيقن في قرارة نفسه أن وضع الأرمد لن يتبدل ولو بآلاف الخُطب والكلمات، من ذاق الظلم والقهر كلّ هذا الزمن يستوحش بعد ذلك طعم الكرامة، لن تفارق ذهنه أبدًا جملةٌ قالها زين في نهاية حديثهم «حاضر به ظلم نألفه خيرٌ من مستقبل نجهل ما يمكن أن يأتي به».

follow on telegram: @librarytn

(5)

إنه صباح الرابع عشر من الشهر أخيرًا، عندما وصل يونس إلى الجزيرة كان أول تحذيرٍ من العم عياش هو ألَّا يخرج من مسكنه ابتداءً من غروب هذا اليوم وحتى شروق اليوم التالي، بسبب ما أسماه بالوحش الذي يأتي من الجبل، ويفترس جسدَ مَنْ تسوِّل له نفسه الخروج من استراحته، فكان من غير المسموح ليونس أن يخطو خطوة واحدة إلى الخارج في الموعد المذكور.

استيقظ يونس من النوم وغيَّر ملابسه مسرعًا وانطلق إلى الخارج، كان يريد أن يرى كيف يستعد أهل الجزيرة لهذا اليوم، وفي الشوارع كان كلُّ شيءٍ طبيعيًّا، لا مصائد ولا فخاخ للوحش المزعوم، لا استعداد مميز ولا حتى تأهب أو خوف ظاهر على وجوه الناس.

تناولوا الإفطار في دار النعمة، وقبل انصرافهم وقف العم عياش يهنئ الجميع بالذكرى الشهرية لتأسيس جزيرتهم التي هم على استعدادٍ تام أن يضحوا بأنفسهم من أجلها، خطابٌ آخر كخطاباته الكثيرة، وكالعادة لم يأتِ أحدٌ إلى عيادته طوال اليوم حتى أتى وقت العصر وبدأت الشمس تأخذ استعدادها للغروب، سمع يونس صوتَ طرقٍ على باب المسكن، تأهب

follow on telegram: @librarytn

يونس لمقابلة الطارق على أمل أن يكون مريضًا ينشُد العلاج، لكن خاب ظنه عندما رأى الواقف على الباب، الذي كان أحد الجنود الذي جاء ليؤكد عليه الالتزام بأوامر العم عياش بعدم الخروج من المسكن وإلا فسيعرِّض حياته للخطر بما في ذلك إغلاقه لجميع أبواب الاستراحة ونوافذها حتى شروق الشمس، أكد يونس على التزامه بالأوامر دون أن يبدي اعتراضًا، وبالفعل عندما أوشكت الشمس على الغروب أغلق يونس جميع النوافذ والأبواب.

وها هي الشمس تذهب لمستقرها ويبدأ الظلام يصبغ السماء، وما هي إلا دقائق قليلة حتى سمع دويَّ بوقٍ يعلو لينتشر صوته في أنحاء الجزيرة، وأعقبه صوت دقات طبول ثم ساد الصمت.

استمر الصمت بالخارج دون أن يقطعه صوت، في البداية حاول يونس الالتزام بأوامر العم عياش وبقي في مسكنه يحاول مطالعة بعض الكتب، ولكن دائمًا ما كانت آفته الفضول، لم يستطع تحمل البقاء في المسكن، كان يريد أن يرى هذا الوحش الذي يخشاه أهل الجزيرة، كان على يقين بأنَّ هذا الحدث هو مجرد قصة شعبية أو خدعة كالنَّدَّاهة والغول، كما أثار صوت البوق والطبول فضوله أكثر، فعزم على الخروج مهما كانت العواقب التي سيواجهها في الخارج.

توجه إلى الباب، حاول أن يفتحه ولكن الباب كان موصدًا من الخارج، يبدو أن العم عياش شكَّ في أن الفضول سيتملَّك من يونس، فأمر بإغلاق الباب بقِفل من الخارج. حاول يونس دفع الباب عدة مرات لكن محاولته لم تُفْلح، توجَّه إلى النافذة ليجدها مغلقةً هي الأخرى، أغلقوا منفذًا يمكن أن يعبر من خلاله إلى الخارج.

ظلَّ يفكر لدقائق حتى تذكر شيئًا، باب السطح كان قفله موجودًا من الداخل، كان القفل قديم الطراز للغاية فلم يجد يونس صعوبةً في فتح

follow on telegram: @librarytn

القفل باستخدام قطعة معدنية ذات حدٍّ رفيع كانت في المسكن، فتح الباب ليجد أمامه من أعلى سطح المنزل المدينة بأكملها. تعلَّق بسور المنزل ومنه إلى حافة بارزة في الخلف حتى وصل إلى الأرض، رأى أمامه القفل الذي وضعه الجندي على الباب كما توقع فابتسم وهمس إلى نفسه مشجعًا: «لن تمنعني قطعة حديدية قديمة من الخروج، فَكّر في حيلةٍ أخرى يا عم عياش».

توجه يونس صوب المدينة في حَذَرٍ، كان كلُّ شيءٍ طبيعيًّا باستثناء خلو الشوارع من شخص، المصابيح الزيتية أمام البيوت تبعث ضوءها لتنير الطرقات، تجول في الشوارع لدقائق لا أثر لمخلوقٍ حتى وصل إلى السوق، كانت جميع الدكاكين مفتوحة ولكن لا أحد بها، حتى المقاهي كانت كراسيها موضوعة وعلى الطاولات كانت الأكواب مملوءة بما فيها، محتفظةً بالقليل من دفء ما تحويه داخلها لم تنقص إلا القليل كأن أصحابها اختفوا قبل أن يكملوها، المدفأة المشتعلة في جانب المقهى كانت جمراتها ما زالت مشتعلة.

أكمل يونس المسير حتى وصل إلى حي الأرمد، كان هادئًا كباقي أحياء المدينة، شوارع خالية موحشة كأنما هجرتها الحياة، أكمل السير حتى بلغ الشك منه مبلغه، لم يرَ وحشًا أو جنديًّا، ولم يسمع حتى صوتًا يحذره، قرَّر أن يطرق باب أحد بيوت الأرمد ليفهم ما الأمر، وصل أمام أحد البيوت وطرق بيده على الباب الخشبي الضعيف فانفتح أمامه، نادى قائلًا: «يا أهل الدار هل من أحدٍ هنا؟».

ولكن لم يأتِه ردٌّ، فقرر أن يدخل البيت، كان البيت هادئًا تمامًا، فارغًا من سكانه، تجوَّل في البيت الصغير ليجد طاولةً صغيرة عليها كسرات من الخبز وطبق به بعض زيت الزيتون، وبعض ثمرات الزيتون التي كانت إحداها أُكل نصفها وبقي النصف الآخر، وكسرة من الخبز غُمست بالزيت،

follow on telegram: @librarytn

ولكن تُركت على الطاولة كأنَّ أمرًا ما قد حدث لم يمهل صاحب الدار لينهي طعامه، وفي جانب المنزل مجموعة من الملابس المُبلَّلة لم تُكمل صاحبتها نشرها لتجف، حتى إن إحداها سقطت عن الحبل إلى الأرض قبل أن تثبتها صاحبتها.

خرج من المنزل وظل يبحث في كلِّ المنازل المجاورة عن شخص، لكن جميعها كانت فارغة، ترك حيَّ الأرمد وعاد للمدينة ليبحث عن أحد من بني الأشهب أو الخاصة، ولكن كانت جميع منازلهم أيضًا فارغة كأن الأرض انشقت وابتلعت جميع أهل الجزيرة، أصابته الحيرة عندما أدرك أنه الوحيد على سطح الجزيرة، أين اختفى الجميع؟ ظل يجري باحثًا عن أحد ولكن دون جدوى، سرعان ما هدَّأ من روعه مخاطبًا نفسه بأنه من المؤكد سيعودون في الصباح، وأن بالأمر خدعة ما، ثم أتته فكرة بأنه لن تأتيه فرصة أفضل من هذه لاستكشاف الجزيرة ومعرفة بعض أسرارها، فتوجه إلى قصر العم عياش نفسه.

كانت أبواب جميع المنازل والقصور في الجزيرة في هذا اليوم غير موصدة، ولم تختلف عنهم أبواب قصر العم عياش، دفع الباب العملاق فانفتح دون مقاومة، صاح قائلًا بأعلى صوته: «هل من أحد هنا؟».

لم يأته ردٌّ فعلم أن القصر خالٍ، وفي ردهات القصر الخالية من إنسان. تنقَّل بِحُرية يتفحص القصر حتى وصل إلى الغرفة التي قابل فيها العم عياش لأول مرة، غرفة العرش أو كما يطلق عليها بنو الأشهب غرفة العمومة، دفع الباب ودخل إلى القاعة الكبيرة فتقدم حتى بلغ كرسيَّ العرش، كان الكرسيُّ أكثرَ بهاءً وفخامةً عن قرب، عرشٌ من الذهب الخالص المُرصَّع بالأحجار الكريمة والجواهر التي لم يُرَ مثيلًا لها في حياته.

جلس على الكرسي ليجرِّبَ كيف يكون إحساس السلطة، انتابه شيءٌ من الزهو والفخر عندما رأى أمامه القاعة الواسعة وهو يجلس في مستوى

follow on telegram: @librarytn

أعلى من جميع الكراسي حوله، فكيف يكون شعورُ العم عياش نفسه وكلُّ مَنْ في هذه الجزيرة يمتثلون لأوامره!

أكمل جولته في القصر فوصل إلى غرفة العم عياش كان قد زارها مرةً واحدة عندما اشتد الألم بالعم عياش منذ أيام، لكنه لم يتأمل تفاصيلها بسبب الموقف، كانت الغرفة ذات قباب بيضاء زُخرفت بأشكال أغصان زيتون متشابكة ذهبية اللون وعلى مصراعي الباب نُقش شكلٌ لأسد ذهبي الذي كان الشعار المميز لبني الأشهب. وقف أمام الباب يراجع نفسه هل من الأدب أن أدخل غرفة الرجل في غيابه، ولكن سرعان ما ردَّ على نفسه قائلًا: «اللعنة على الأدب، أنا وحيد على هذه الجزيرة الآن، لا بُدَّ أن يكون في الداخل شيء يخبرني أين ذهب الجميع أو كيف أنجو من هذ الجزيرة».

دفع الباب ودخل، كانت الغرفة تحتوي على سريرٍ ذهبيٍّ كبير ذي أعمدة تقترب من السقف، فُرش عليه بساطٌ من حرير ووسائد مخملية. وفي الناحية الأخرى مرآة عظيمة ذات حافة مذهبة ومطعمة بالياقوت الأحمر دموي اللون، وأمامها طاولة وضع عليها أصناف من العطور، وبجانبها صندوق ضخم به الكثير من الحُلِي وبعض اللفافات، فضَّ إحداها ليجدها خريطة للجزيرة يتوسطها الجبل الأسود، وبجانبه القصر ومن حوله منازل بني الأشهب وغابة الزيتون ومن خلفها منازل الأرمد، وتوضيح للطرق المؤدية إلى كهوف الجبل الأسود، مؤكدًا فيها على طريق أحد الكهوف بالتحديد بخطٍ ثقيل، فأثار ذلك فضول يونس، أمسك بلفافة أخرى كانت شديدة القِدم عرف ذلك من ورقها الذي أوشك على الاهتراء ففضها بحرص، تبيَّن أنها خريطة أخرى للجزيرة، لكن شديدة القِدم عرف ذلك من الجبل وغابة الزيتون، ولكن كانت دون القصر الأبيض ولا قصور بني الأشهب ولا شيء آخر، لم توجد بها إلا مجموعة من البيوت الصغيرة المتناثرة على الشاطئ.

follow on telegram: @librarytn

كانت هناك خريطة ثالثة، رسم لمدينة أخرى ولكنه لم يستطع معرفتها، وبجانب غرفة العم عياش كانت هناك غرفتان بابهما مماثل لباب غرفة العم عياش ولكن أصغر حجمًا، دخل إحداهما ليجدها غرفة فخمة استنتج من محتوياتها والملابس التي بها أنها غرفة رضوان، أما الغرفة الثانية والتي كانت مماثلة لغرفة رضوان لم يستطع تبيُّن من هو صاحبها.

بدأت ظلمة الليل تتبدَّدُ شيئًا فشيئًا معلنةً عن اقتراب ظهور الشمس، فعاد يونس مسرعًا لاستراحته بالطريقة نفسها التي خرج بها، تسلَّق السور حتى صعد إلى السطح حتى إذا ظهر أهل الجزيرة مرةً أخرى لا يشك أحدٌ في خروجه، عاد لسريره لتمر دقائق ويسمع صوت البوق الذي سمعه في الليل واتبعته جلبة مرة أخرى، فعلم من خلالها أن أهل الجزيرة قد عادوا.

لم يستطع النوم في الساعات التالية، عقله لا يكف عن التفكير أين كان الجميع، كيف لمدينة بأكملها أن يختفي أهلها، ثم يظهروا مرةً أخرى بهذه البساطة؟ ظل غارقًا في أفكاره حتى سمع طرقات الباب، كان أحد الجنود يخبره بأن العم عياش ينتظره لتناول الإفطار.

كانت المدينة قد عادت لطبيعتها مرةً أخرى، الناس في الشوارع، الدكاكين مفتوحة وبها العمال يعملون دون كَلَل. وصل يونس إلى دار النعمة، الجميع كانوا في أبهى حللهم، طبيعيين للغاية كأنَّ شيئًا لم يحدث بالأمس، تقدم يونس حتى أخذ مقعده بجوار العم عياش الذي نظر إليه مبتسمًا وقال: «أرجو أن تكون قد حظيت بليلة سعيدة يا طبيب؟».

فكَّر يونس في أن يواجهه بما حدث في الأمس لكن شيئًا داخله أخبره بألَّا يفعل، فقال مبادلًا إيَّاه الابتسامة نفسها: «نعم، ظللت أطالع كتبي حتى غلبني النوم».

هزَّ العم عياش رأسه متفهمًا، ثم قال مخاطبًا الجمع أمامه: «الحمد لله على عدم تضرر أيُّ أحدٍ من الوحش بالأمس، ونأمل أن تكون جميعُ

follow on telegram: @librarytn

أيامنا خالية من أذى لجميع أبناء جزيرتنا، يمكنكم تناول الإفطار ومباشرة أعمالكم».

أنهى يونس طعامه سريعًا، ثم عاد لاستراحته وهو يفكر كيف يتعامل كلُّ هؤلاء الناس كأنَّ شيئًا لم يحدث، فكَّر قليلًا ثم عرف أين سيجد الإجابة، سيجدها عند زين.

توجَّه يونس إلى السوق باحثًا عن زين، ظل يتجول بين الدكاكين لكنه لم يجده، فتوجه إلى غابة الزيتون ومنها إلى حي الأرمد، ليجده جالسًا عند مدخل إحدى الطرقات بصحبة مجموعة من الشباب، تفاجأ زين عندما رأى يونس فترك رفاقه وتوجه إليه قلقًا: «ما الأمر يا طبيب ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

- كنت أبحث عنك، أريد أن أسألك عن أمرٍ ما، ولكن ليس هنا، أريد مكانًا آمنًا.

- حسنًا، اتبعني.

تبعه يونس عبر الطرقات والأزقة الضيقة لحي الأرمد حتى وصلا إلى حافة صخرية مطلةٍ على البحر، جلس زين وبجانبه يونس، فقال زين: «ما الذي تريد أن تسأل عنه يا طبيب؟».

- أين اختفى الجميع بالأمس يا زين؟

وقع السؤال على زين كوقع الصاعقة امتقع وجهه ثم قال في توتر: «ألم تبقَ في استراحتك بالأمس؟».

- لا، خرجت ووجدت أن المدينة خالية من أيِّ مخلوقٍ.

ليرد زين في حسرة قائلًا: «لماذا يا طبيب، بفعلتك هذه فتحت على نفسك بابًا من أبواب الجحيم، إياك أن تكون قد أخبرت أحدًا بما فعلت؟».

- لا، لم أفعل، ولكن لمَ كلُّ هذا القلق، ما الذي يحدث في هذه الليلة؟

follow on telegram: @librarytn

follow on telegram: @librarytn

- لن أستطيع أن أخبرك، ستعرِّض حياتك للخطر، اهرب من الجزيرة يا طبيب قبل أن يعلم أحدٌ، العم عياش لن يتركك على قيد الحياة إذا علم بخروجك.
- لن أهرب يا زين، لم أرتكب خطأً لأهرب، لقد أتيت إلى هذه الجزيرة من أجل بدايةٍ جديدة فلن أهرب وأنا مُحملٌ بكلِّ هذه التساؤلات، إن هربت من الجزيرة فهل سأهرب من تفكيري.

سكت زين لم يعرف بما يرد، فأردف يونس قائلًا: «ساعدني يا زين لأفهم إذا كنت سأبقى في هذا المكان فيجب أن أعرف ما يدور فيه، أنت الشخص الوحيد الذي أثق به في هذه المدينة».

تنهَّد زين تنهيدة توحي بتسليمه للأمر، ثم قال: «حسنًا يا طبيب، انتظر حتى يوم الرابع عشر وستعلم أين يذهب الجميع».

تهلَّلت أسارير يونس، وقال فرحًا: «شكرًا يا زين، لن أنسى لك هذا أبدًا».

ثم انصرف بعدما ودَّعه، ظل زين يراقبه حتى اختفى يونس عن الأنظار فقال مخاطبًا نفسه: «أرجو ألَّا تكون نهايتك على أرض هذه الجزيرة يا طبيب».

في أيامه التالية أدرك يونس أن عيادته لن يأتيها زوار ما دام بقي فيها منتظرًا؛ فأغنياء المدينة لا يوجد ما يمرضهم، حياة هانئة مُرفهة، وإن أصابَ قِلَّةً منهم المرضُ فيُفضِّلون الموت على أن يسمحوا لغريب بالاقتراب منهم، وأمَّا الأرمد فالمرض لا يغادر بيوتهم، ولكنهم كانوا يخشون من أن يُظهروا مرضهم حتى لا يعلم أغنياء المدينة فيسرحونهم من أعمالهم، كانت هموم الحياة كثيرةً، وكان المرضُ شيئًا هيِّنًا أمامها فكان حتى العلاج رفاهية لا يملكونها فنسوه أو تناسوه عمدًا.

قرَّر يونس أنه إذا لم يأتِ المرضى إليه فسيذهب هو إليهم، فأصبح دائم التردد على حي الفقراء، يتجول في الحارات والأزقة باحثًا عمَّن يحتاج

follow on telegram: @librarytn

المساعدة، ولكن الفقراء كانوا يخشون الاقتراب منه. استمرَّ الوضع هكذا لأيام حتى في إحدى المرات وفي أثناء جولته في إحدى الحارات كان هناك مجموعة من الأطفال صغار السن لا تتجاوز أعمارهم السنوات السبع، كانوا منهمكين في اللعب، وفجأة تجمع الأطفال في فزعٍ حول واحد منهم، كان الصبي قد سقط على الأرض ممسكًا رقبته ووجهه، أصبح أزرقَ اللون، كان الصبي عاجزًا عن التنفس، هرعت إليه أمه التي كانت جالسة مع نسوة أخريات في جانب الطريق فزعة، وظلت تصرخ مستنجدة بالمارة من أجل أن ينقذ أحدهم طفلها المسكين، ولكن كان الجميع ينظر إليها في أسف دون أن يفعلوا شيئًا، ولكن لحسن الحظ كان يونس يمر بالقرب منهم، اندفع إلى التجمع وانتزع الصبي الذي أوشك على الهلاك من حضن أمه، ظلت الأم متشبثةً بيد ابنها محتفظةً بكرهها للسادة وعدم ثقتها بهم، فصاح فيها يونس قائلًا: «إذا لم تتركيه الآن فسيموت بين ذراعيك».

تركته الأم على تردد، كان هو الأمل الوحيد كي تستعيد ابنها، أمسك يونس الصبي محتضنه ولف يده حول خصره، واضعًا إحدى يديه على أعلى البطن، واليد الأخرى تدعم الأولى، ظل يضغط بكلِّ قوتهِ على بطنه حتى لفظ الصبي الجسم العالق بحلقه وسعل معلنًا احتفاظه بحياته، جذبت الأم صغيرها واحتضنته، باكيةً ولسانها لا يكف عن نطق عبارات الشكر والامتنان إلى يونس.

أثنى جميع الواقفين على الطبيب الشاب ومن يومها انقلب الحال بيونس، ازداد حب الأرمد له وثقتهم به، شعروا أنه مختلف عن باقي الأغنياء، وأصبح دائم التردد على حي الفقراء، كان يمضي نصف اليوم في مسكنه والنصف الآخر بصحبتهم يستقبل شكواهم ويعالج مرضاهم، فازدادت شعبيته بينهم وأقاموا له كوخًا وسط حيِّهم يستقبل فيه مرضاه.

follow on telegram: @librarytn

وصلت أنباؤه إلى مجلس بني الأشهب، فأثارت غضب السادة، كيف لشخصٍ محسوبٍ على السادة أن يكون بهذا القرب من فقراء المدينة، فأرسل العم عياش في استدعائه وعندما مَثُل يونس بين يديه سأله مستجوبًا: «بلغتنا أنباء عن ترددك الدائم على حي الأرمد يا طبيب، هل هي صحيحة؟».

يرد يونس مستعجبًا: «نعم يا سيدي، وما في الأمر؟!».

يجيبه العم عياش في هدوء: «هل تعلم يا طبيب من هم الأرمد، الأرمد هم فئةٌ عاصية متمردة، حاولوا زحزحة استقرار الجزيرة أكثر من مرة، ومن رحمتنا بهم تركناهم يعيشون معنا حتى الآن على هذه الجزيرة، بل ووفرنا لهم عملًا يكسبون منه رزقهم، ومساكن تأويهم على الرغم من فعلتهم، فاحذر الاقتراب منهم، حتى لا تحمل معهم إثمًا لا دخل لك به».

فقال يونس في ثبات: «وما ذنبهم هم أيضًا كي يحملوا وزرًا لم يقترفوه، أتحاسبون قومًا بذنبٍ ارتكبه أحدهم فيما مضى».

ليرد العم عياش في حدَّةٍ بعدما ارتفعت نبرة صوته قائلًا: «ذنبهم أنهم أبناء سليمان الأرمدي».

ليقاطعه يونس بعدما ارتفعت نبرة صوته هو الآخر: «ولكن أين العدل في ذلك؟».

لينهض العم عياش من موضعه غاضبًا ويصيح في يونس: «احذر من طريقة كلامك، وتذكر مع مَنْ تتحدث، لقد أتيت إلى هنا للقيام بوظيفةٍ محددة، فلا شأن لك بنظام الجزيرة الذي قامت عليه منذ مئات السنين».

ثم سعل بشدة حتى كاد أن يسقط فأسنده ابنه رضوان حتى عاد لموضعه، وتابع كلامه بعدما استعاد هدوءه قائلًا: «قررنا نحن مجلس الجزيرة منعك من الذهاب إلى حي الأرمد مرةً أخرى، وغير مسموح لك بالكشف على أحد إلا في مسكنه أو بأمرٍ شخصي منَّا».

follow on telegram: @librarytn

- ولكن....

أردف العم عياش غير ملتفتٍ لكلمات يونس قائلًا: «ونرجو ألّا يجبرنا الطبيب على اللجوء إلى تحديد إقامته في المسكن، ومنعه من الخروج إلى شوارع الجزيرة، يمكنك الانصراف الآن».

غادر يونس المجلس وشرر الغضب يتطاير من عينيه، وفي اليوم التالي توجه إلى حي الأرمد غير عابئٍ بأوامر العم عياش، سلك الطريق المؤدي إلى الحي، وعند وصوله إلى المدخل المؤدي إليه، وجد اثنين من جنود بني الأشهب يعترضان طريقه ويمنعانه من العبور، قال أحدهما بوجه خالٍ من تعبيرٍ: «إلى أين؟».

ليردَّ يونس في تحدٍّ قائلًا: «إلى الحي الذي خلفك».

- العم عياش أمر بمنعك من الدخول إلى هنا.

ثار يونس معترضًا: «لا أحد يملك الحقَّ ليمنعني من علاج الناس».

صاح به أحد الجنود: «أرجوك يا طبيب، لا تجبرنا على استخدام العنف ضدك».

نظر يونس إلى الأطفال الصغار الواقفين خلف الجنود والحسرة تملأ أعينهم، فعاد وهو يجر خيبات الأمل بقلب كسير وقيود سببتها له قلة الحيلة، ولكن كان عزاؤه الوحيد أن الرابع عشر من الشهر قد اقترب، وسيعلم حقيقة هذه الجزيرة لعله يستطيع مساعدة الأرمد بشيءٍ، ولكن ما لم يكن يعلمه أن يوم الرابع عشر هو يوم تغيير حياته إلى الأبد.

follow on telegram: @librarytn

(6)

أتى صباح اليوم الموعود، أشرقت شمس يوم الرابع عشر، كلُّ شيءٍ طبيعيٌّ، الشمس ساطعة كالعادة، الطيور تحلق في السماء باحثةً عن رزقها، وأهل الجزيرة هائمون بين منهمك في اللهو واللعب وبين كادٍّ في عمله. ساعات النهار مرت ببطء شديد حتى اقترب العصر، كان يونس وزين قد اتفقا على اللقاء عند البئر المجاورة لغابة الزيتون، عندما وصل يونس كان زين في انتظاره حاملًا في يده حقيبةً قماشية أعطاها ليونس قائلًا: «ارتدِ هذه الملابس وقابلني هنا في المكان نفسه قبل الغروب بساعة، واحرص على تغطية وجهك جيدًا باللثام الذي في الحقيبة».

أخذ يونس الحقيبة وهَمَّ بالانصراف ليلحقه صوت زين الذي نادى معقبًا: «احرص يا طبيب على ألَّا يراك أحد في الطريق».

عاد الطبيب للاستراحة وأخرج الملابس من الحقيبة، كانت عبارة عن بنطالٍ قماشي واسع، قرمزي اللون، وقميصٍ قماشي أبيض، وصدرية قرمزية مطرز حوافها بخيوط فضية اللون، وعمامة قرمزية ولثام يلف على الوجه، ارتدى يونس ملابسه وانتظر حتى اقترب موعد مغيب الشمس، سمع دقات على الباب ليرد من خلف الباب دون أن يفتحه: «مَن الطارق؟».

follow on telegram: @librarytn

يأتيه الردُّ بصوت أحد الجنود قائلًا: «العم عياش يؤكد على وجوب الالتزام بمنزلك حتى طلوع الشمس».

ورحل بعدما أغلق الباب من الخارج كالشهر الماضي، انتظر يونس حتى تأكد من رحيل الجندي، ثم صعد إلى سطح منزله كالمرة السابقة. وتعلق بالسور ثم الحافة البارزة، ثم وصل إلى الأرض. كان يحمل حقيبةً بها ملابسه خبأها بالقرب من الشاطئ حتى إذا شك أحد في أمره يستطيع العودة مسرعًا وتغيير ملابسه دون أن يكتشف أحد هويته.

لفَّ يونس اللثام على وجهه جيدًا، فأصبح لا يظهر منه سوى عينيه وسار عبر طرقات المدينة مستترًا بأشجارها الكثيفة وشوارعها الخلفية عن أعين الجنود الذين انتشروا في كلِّ مكانٍ كالجراد، ملتفتًا بين لحظة وأخرى ليتأكد ألَّا يوجد أحد يتبعه، حتى وصل إلى البئر. كان زين ينتظره مرتديًا ملابس مماثلة لملابسه والقلق ظاهر على وجهه، قال زين مستنكرًا: «لمَ تأخرت يا طبيب، ظننت أن الجنود قد أمسكوا بك».

- عذرًا، كان عليَّ التأكد من رحيل الجنود عن الاستراحة.

- حسنًا، لنسرع، ليس أمامنا الكثير من الوقت.

سار يونس بصحبة زين حتى وصلا إلى حي الأرمد، قابلا في طريقهما جنديين فسار زين في ثباتٍ وتبعه يونس، سمعا صوت أحد الجنود: «أنتما!».

أوشك قلب الاثنين على التوقف وتصبَّب العرق من جبينهما كأنه نهرٌ جارٍ من شدة التوتر، هل انكشف أمرهما وسيُؤخذان إلى السجن الآن؟ التفت زين إلى الجنديين خلفهما وقال متلعثمًا: «نعم يا سيدي».

يصدر الجندي أمرًا: «أَسْرِعا، ليس هناك متسعٌ من الوقت».

تنفَّس زين الصعداء وقال: «على الفور يا سيدي».

follow on telegram: @librarytn

ورحل مسرعًا وتبعه يونس، توارى الاثنان لدقائق داخل أحد الأكواخ الصغيرة في الحي وما هي إلا دقائق حتى تعالت أصوات الأبواق في أنحاء الجزيرة.

قال زين وهو ينهض: «الآن يا طبيب تعال معي».

خرج الاثنان من الكوخ في الوقت الذي كان جميع الأرمد يخرجون من منازلهم، اصطفَّ الجميع في صفين، الرجال على اليمين والنساء على اليسار، كلُّ صفٍّ منهم يشمل جميع الفئات العمرية من شباب وشيوخ وأطفال. انضم يونس وزين إلى الصفِّ، كان الجميع يرتدون الزيَّ نفسه ويلفون اللثام حول وجوههم، فلم يتعرف عليه أحد حتى الجندي الذي كان يسير ليتمم على الواقفين.

اقتحم بعدها الجنود منازل الحي ليتأكدوا أن الجميع قد انضم، ومن تأخر كانوا يعنفونه كي يسرعَ، وعندما اكتمل العدد تعالَى صوتُ البوقِ مرةً أخرى، فشرع الجنود الذين تراصوا على جانبي الصف على بُعْد مسافات متساوية في دق الطبول بإيقاعٍ منتظم موحد، تحرَّك على أثره الصفان متجهيْن إلى المدينة.

وعند وصولهما إلى شوارع الأثرياء انضم إليهما أهل الخاصة، كانوا في أبهى حللهم يرتدون أفخر ملابس يمتلكونها، توجَّه الجميع بعد ذلك إلى قصور بني الأشهب حيث انضم إليهم بنو الأشهب، ليتقدم الموكب العم عياش وبجانبه ابنه رضوان في موكبٍ مهيب.

أشار العم عياش بالعصا الذهبية ذات الياقوتة الحمراء التي كان يمسك بها إلى مجموعةٍ من جنوده فقادوا فرقةً من الأرمد إلى داخل المبنى الكبير المجاور للقصر، كان يونس وزين ضمن هذه الفرقة، دخلوا إلى المبنى، كان عبارة عن ورشة كبيرة لصناعة التماثيل ولكنها كانت مختلفة عن تماثيلَ عرفها من قبل، كانت تماثيل لكائنات خرافية، فيل ضخم برأس نمر

follow on telegram: @librarytn

ذو أنياب توشك على أن تبلغ الأرض، حصان عملاق برأس أفعى وغيرها من التماثيل على الشاكلة نفسها، كانت متقنة النحت بشكلٍ لا يصدق، لا يفصل بينها وبين الكائنات الحية سوى الروح فقط، ولكن كان الغريب في جميع التماثيل أنها منحوتة وكأنها مقتولة.

أمر الجنود شباب الأرمد برفع التماثيل فأخذوها وعادوا للموكب، في اللحظة التي كانت هناك فرقة أخرى من الأرمد تقتاد ثورين هائلي الحجم، أمسك بكلِّ ثورٍ منهما عشرة من الشباب كي لا يهربوا، وانضم الآخرون إلى الموكب، حينها أشار العم عياش لنا نفخ الأبواق، فارتفع صوتها مرةً أخرى، وقرع الجنود الطبول وتحرك الموكب الذي كان يقوده العم عياش وابنه رضوان في عربةٍ كأنها مصنوعة من الذهب تجرها الخيول، ومن خلفهم باقي بني الأشهب ومن بعدهم أهل الخاصة، وفي النهاية الأرمد ويحوط كلَّ هذا فِرقٌ من الجند تنوعوا بين مشاةٍ بأسلحة متنوعة من سيوف ورماح وفرسان.

سار الموكب عبر شوارع المدينة حتى وصل إلى كهفٍ عظيم في ظهر الجبل لم يرَه يونس من قبل، دخل العم عياش إلى الكهف ومن خلفه الجميع.

كان الكهف شديد الاتساع، وقف فيه جميع أهل الجزيرة ولم يشعر أحد بالضيق، نزل العم عياش من عربته وتقدم حتى وصل إلى أقصى حائط داخل الكهف، انتظر دقائق حتى غربت الشمس تمامًا وظهر البدر في جانب السماء، حينها تقدم الجنود بالثورين وقاموا بذبحهما لتُغْرِق دماؤهما أرضَ الكهف، وبيده لطَّخ العم عياش الحائط بالدماء، وما هي إلا لحظات حتى ارتجَّ الجبل، حينها شعر يونس بأن الجبل سيسقط عليهم ليدفنوا تحت صخوره، ولكن الجبل لم يسقط بل حدث ما لم يخطر على بال يونس.

follow on telegram: @librarytn

الحائط الملطخ بالدماء انشق، وتباعد جانِبَا الشق كالبوابة لتكشف عن ممرٌ طويل ممتد، تقدم العم عياش ودخل الممر ومن خلفه تتابع دخول الجميع. كان يونس لا يصدق ما يراه، فظل فاغرًا فاه حتى جذب زين يده وقال: «انتظر حتى ترى ما يدهشك بحق».

دخل الجميع إلى الممر الذي كان منحدرًا لأسفل مما جعل حركتهم أسرع، واستمر سيرهم فيه لدقائق بعدها لمح يونس شعاعًا من نور قادمًا من آخر الممر، فتقدموا نحوه ليُصعق يونس مما رآه في نهاية الممر.

مدينة كاملة تحت الأرض! كان الذي رآه يونس أمام عينيه لا يصدقه عقل، أرض واسعة ممتدة كأنها كهف ولكنه يتسع لمدينة كاملة، كان السقف عبارة عن أحجار لامعة ذات لون يتغير بين الأصفر كضوء الشمس عند المساء والأزرق القاتم كالليل عند الصبح لتعطي شعورًا مشابهًا بوجود سماء، ولكن بمواقيت منعكسة عن الخارج، فكان الصباح في الخارج هو المساء تحت الأرض والعكس.

كانت الأحجار تشع ضوءًا يُبدِّدُ ظلمةً ليتكشف معها الأفق أمام الجميع، ومن السقف تهبط أعمدة تصل إلى الأرض لتدعم السقف وتحفظه من الهبوط، كانت الأعمدة كبيرة للغاية، وبين كلِّ عمودٍ وآخر مسافة شاسعة تكفي لاستيعاب حي كامل، تتوسط هذه الأرض بحيرة عظيمة يتفرَّع منها خمسة أنهار، على شاطئ كلِّ واحدٍ منهم استقرت منازل عدة تنوعت بين القصور ومنازل قديمة طينية البنيان.

كانت الأرض ممهدة، مساحة كبيرة، يقع على أطرافها وبالقرب من نهايتها عدد من المرتفعات الصغيرة، تحيط بالمدينة كأنها درعٌ يحمي ظهرها، وبجانب البحيرة وبعيدًا عن المنازل المستقرة على جوانب الأنهار الخمسة، تتألق مجموعة القصور المبنية على الربوات العاليات، مماثلة لقصور بني الأشهب. وأمام البحيرة كانت هناك ساحة واسعة، يفصل

follow on telegram: @librarytn

بينها وبين البحيرة مجموعة من أشجار الزيتون صغيرة الحجم مصطفة بمحاذاة البحيرة، يتوسطها شجرة عتيقة كبيرة الحجم يبلغ عمرها مئات الأعوام.

عبر الموكب نهاية الممر ليتفاجأ يونس برؤية جموعٍ غفيرة من الناس، قد وقفوا في استقبال الموكب وبمجرد ظهور العم عياش صاح الناس مهللين وفرحين، ومن بين الجموع تقدم أحد الرجال وما أشبهه برضوان، استنتج يونس أنه أخوه التوءم، يرتدي ملابس فارهة كملابس بني الأشهب، انحنى الشاب على يد العم عياش ليقبلها وقال: «حمدًا لله على سلامتك يا أبي».

ربت العم عياش على كتف الشاب في ودٍّ وقال متبسمًا: «بوركت يا بُني».

ثم اقترب الشاب من رضوان وعانقه قائلًا: «أخي رضوان، أرجو أن تكون بخير».

فيرد رضوان ببروده المعتاد: «في أحسن حالٍ يا تيم».

كانت المفاجآت كثيرة على يونس ليستوعب عقله كلَّ هذا. ما هذا المكان؟ ومن أين أتى كلُّ هؤلاء الناس؟ ومن هذا الرجل الذي يصحبه العم عياش هل قال له يا بني؟ ولماذا لم يرَ هذا الابن حين أتى إلى الجزيرة؟ قطع سيل الأسئلة في عقله صوتُ العم عياش الذي رفع يده مخاطبًا الجميع وصاح قائلًا: «الآن، فليبدأ عيد الفداء».

هلَّل الجميع فرحين وارتفعت أصوات الأبواق، وعلى ضفاف البحيرة وفي الساحة الواسعة نُصبت منصة وضع عليها ثلاثة كراسي، أوسطهم أعلى درجة، جلس عليه العم عياش وعلى جانبيه جلس ولداه رضوان وتيم، وفي صدر القاعة وُضع نُصب عُرف بنُصب الفداء اشتعلت به النيران وتعالى لهيبها، فأشار العم عياش إليهم فبدأ الاحتفال.

follow on telegram: @librarytn

فقرات من الرقص على نغمات الآلات الموسيقية قام بها مجموعة من الشباب يؤدون حركات بهلوانية وجوارٍ حسان جذبن أنظار الجميع، ومن ثم تباعدت صفوف الأرمد لتخرج فرق الأرمد حاملة للتماثيل المخيفة وصعدوا بها النصب، فشهق بعض الموجودين من تحت الأرض عندما رأوها من شدة الخوف، حينها وقف العم عياش وبلسانه الفصيح قال مخاطبًا الجموع: «اليوم نحتفل بعيدَنا المقدس عيد الفداء، اليوم الذي نتذكر فيه التضحيات التي قدمها بنو الأشهب في سبيل حماية شعب «ما تحت الأرض» بعدما انتهى العالم وحلَّ الظلام، وانتشرت الكائنات المفزعة من البحر، ولم نفعل ذلك إلا حبًّا لشعبكم واعترافًا منَّا بما قدمتموه لنا من جميل، فاستخدمنا هبة المولى لنا لردِّ هذا الجميل، وليطمئن الجميع بأننا لن نألوا جهدًا في سبيل حمايتكم ولتنعموا بالأمن تحت رايتنا».

تعالت صيحات الناس مهللين وفرحين بخطاب العم عياش، فأشار إليهم بيده حتى هدأ الجميع ثم أردف قائلًا: «والآن فلتبدأ محرقة الفداء».

تعالت صيحات الناس أكثر فتقدم الجنود حاملين المجسمات والتماثيل، وصعدوا بها إلى النصب، وألقوا بها في النار واحدة تلو الأخرى، لتشتد ألسنة اللهب أكثر وتنتشر رائحة اللحم المحروق في أرجاء الساحة فهتف الناس قائلين: «فليعش بنو الأشهب... فليعش بنو الأشهب».

استمرت فقرات الاحتفال ومن بعد انتهائها أشار العم عياش إلى جنوده بالتحرك، كانت المدينة السفلية مقسمة لخمس مناطق، تعيش في كلِّ منطقةٍ منهم عشيرةٌ، يفصل بين كلِّ واحدةٍ والأخرى أحد أنهار البحيرة، فكان على الجنود أن ينتشروا في هذه المقاطعات بصحبة الأرمد لتحصيل ما أسموه «واجب الامتنان»، كان شيئًا أشبه بجباية تحصل من أبناء المدينة لصالح بني الأشهب كاعتراف منهم بامتنانهم من أجل حمايتهم.

follow on telegram: @librarytn

انتشر الجنود ومعهم الأرمد إلى المقاطعات التي كانت مقسمةً داخليًا لأحياء، فكان واجب كلِّ مجموعةٍ من الجنود أن يقودوا فرقة من الأرمد لتحصيل واجب هذا الحي.

كانت إحدى هذه الفِرق تضم يونس وزين فاقتادهم الجنود إلى أحد الأحياء في المقاطعة الثانية، صحب يونس زين في عمله فكان يطرق أبواب المنازل التي عاد أهلها من الاحتفال، وكانت الضريبة عبارة عن خمسين بالمئة مما ينتجه صاحب هذا البيت من عمله سواء كان مزارعًا أم عاملًا في منجم أم في مصنع أم ورشة، استمر العمل إلى ساعات، ظل الجنود يحثُّون الأرمد على العمل تارةً وينهرونهم تارةً ويعنفونهم تارةً حتى ينهوا العمل قبل بزوغ الفجر، وعند مدخل إحدى الحارات تفرَّق يونس وزين بأمرٍ من أحد الجنود، فدلف يونس إلى حارةٍ جانبية ضيقة، ظنَّ أنَّ الأمرَ لن يكون بالصعب، ما عليه إلا أن يطرق بابَ المنزل ويفعل كما يفعل زين.

سار يونس في الحارة وطرق بابَ أحد البيوت القديمة، فلم يأتِه الردُّ، انتظر ثواني ثم طرق الباب مرةً أخرى فلم يُفتح الباب، وعندما همَّ بالانتقال إلى البيت المجاور له فُتح جزء من الباب يكفي لظهور وجهٍ من خلفه، ولكن بسبب الإضاءة المعتمة بالداخل لم يتبيَّن يونس ملامح الوجه، وأيضًا بسبب العباءة التي وضعها هذا الشخص على رأسه، لكن جسده كان يوحي بأنه عجوز بلغ أرذل العمر، قال يونس في ارتياب: «أتيت من أجل الواجب».

ليردَّ العجوز في وَهن: «لقد جهزتها لك يا بُني، ولكني لا أقوى على حملها إلى الخارج، فهل من الممكن أن تدلف إلى داخل البيت وتحملها؟».

تسلَّلَ الشكُّ إلى نفس يونس، ولكن لم يكن لديه خيار فإذا رفض سيشك به العجوز، ومن الممكن أن يبلغ عنه الجنود وينكشف أمره، فأقنع نفسه أنه مجرد عجوز، فماذا يُمكن أن يفعل، فردَّ عليه يونس: «حسنًا يا عم أين الحقيبة؟».

follow on telegram: @librarytn

«من هنا». قالها العجوز الذي تنحَّى عن الباب، فدفعه يونس برفق ودخل البيت، كانت الإضاءة شبه منعدمة تأتي من مصباحٍ صغير كان يحمله العجوز في يده، الذي كان يكفي بالكاد ليتبين موضع قدمه، قال العجوز وهو يسير داخل البيت بصوته المرتعش: «اعذرني يا بُني، فأنا أعيش وحدي منذ زمن، بعدما تُوفي ابنى الوحيد، ولم يعد لي أحد في الدنيا».

ليردَّ عليه يونس بعدما رقَّ قلبه قائلًا: «كلنا أبناؤك يا عم».

وصل العجوز إلى آخر الدار وأشار إلى حقيبة قماشية كبيرة قائلًا دون أن يلتفت: «هذا هو الواجب يا بُني».

انحنى يونس ليحمل الحقيبة وعندما التفت ليخرج من المنزل صُعِقَ عندما رأى الشيخ العجوز انتصب عودُه بعدما كان منحنيًا كالقوس، وألقى عباءته ليظهر من تحتها شاب طويل ونحيل الجسد، لم يفق يونس من صدمته إلا ويتفاجأ بعصا ثقيلة هوت على رأسه من الخلف ليفقد على أثرها الوعي.

***

«أين أنت يا يونس؟» حدَّث بها زين نفسه بعدما فشل في العثور على يونس في الحي كله، كأنما انشقت الأرض وابتلعته، الوقت يمر وأوشك الفجر على البزوغ، وستغلق معه البوابة المؤدية إلى الجزيرة. ظل يبحث في كلِّ زقاقٍ وحارةٍ حتى أصابه اليأس، قطع بحثَهُ صوتُ الجندي الذي صاح: «أنت أيها الأرمدي، فلتعد للساحة سيغلق الممر».

حينها فقد زين الأمل في العثور عليه، وأيقن أن يونس سينتظر شهرًا آخرَ مع شعب المدينة السفلية حتى يستطيع العودة لسطح الجزيرة مرةً أخرى.

follow on telegram: @librarytn

عاد زين لمجموعته من الأرمد وهو يتلفت من لحظة إلى أخرى على أمل أن يجد يونس في أثره، ولكن هذا لم يحدث، تجمع الأرمد ووضعوا ما جمعوه على العربات التي حملت تماثيل الوحوش عند مجيئهم، وعادوا بها لساحة الفداء بعدما امتلأت بما فيها. كان باقي الأرمد في المقاطعات الأخرى قد انضموا إليهم، حينها خرج العم عياش من الخيمة التي كانت وضعت له في ساحة الفداء، ثم أعلن نهاية يوم الاحتفال، ودَّع ابنه والحاشية الباقية معه وعاد لممر ومن خلفه غادر الجميع تباعًا حاملين ما جنوه من أهل المدينة. حينها ألقى زين نظرة للخلف وقال هامسًا: «أتمنى يا طبيب أن تستطيع الصمود هذا الشهر».

عبر آخر فرد من الأرمد وأغلق معه الممر والتحم الشق كأن شيئًا لم يحدث.

follow on telegram: @librarytn

(7)

أفاق يونس على صوت همهمات حوله لم يتبينها جيدًا ليجد نفسه جالسًا على كرسي ومكبل اليدين، استعاد وعيه تدريجيًّا ليجد أمامه شابين أحدهما كان الفتى النحيل طويل الجسد الذي تنكَّر في هيئة العجوز، والآخر فتى ضخمًا مفتول العضلات بدأ الصَّلَع يزحف على مقدمة رأسه، قال الفتى الضخم مخاطبًا النحيل: «ماذا سنفعل به يا سعد؟».

ليردَّ النحيل بعدما حك طرف ذقنه بإصبعه قائلًا: «لا أعلم يا سعيد، ولكن لا بُدَّ أن أعلم الطريقة التي استطاع بها هذا اللعين النجاة على سطح الجزيرة».

سكت الاثنان هنيهة ثم قال سعيد: «ما رأيك أن نُشرِّحَ جسده، حينها من الممكن أن نتبين الجزء المسؤول عن قوته».

أوشكت حينها روح يونس على أن تغادرَ جسده من شدة الخوف، ليردَّ عليه سعد في ضجر قائلًا: «لقد ظلمك أبونا عندما أسماك سعيدًا، كان الأحرى به أن يسميك تعيسًا، هل ترانا طبيبين أو نفقه حتى أساسيات الطب حتى نقومَ بتشريحه؟!».

- حسنًا، أخبرني باقتراحك أنت أيها العبقري.

follow on telegram: @librarytn

- ما رأيك أن نطلب فديةً مقابل تسليمه، حينها من الممكن أن نصبح غَنِيَيْن بسببه.

ضحك سعيد في استهزاء وقال: «وتنعتني أنا بالأحمق! وغير أنه أرمدي، لن يكلفوا أنفسهم إردبًا من الزيتون من أجله، فهل يا تُرى إذا حدثت معجزة وكان هذا الفتى يهمهم فماذا سيكون ردُّ بني الأشهب عندما يعلمون باختطافنا أحد أتباعهم، هل سيعطوننا مكافأة تكريمًا على مجهوداتنا؟».

قطع يونس حديثهما قائلًا: «أرجوكما أنا لست من هذه الجزيرة، ولا أعلم عن أيِّ قوةٍ تتحدثان، هناك سوء فَهْم، أنا طبيب من خارج الجزيرة لم يأتِ بي هنا إلا فضولي اللعين، فأرجوكما أَطْلِقا سَرَاحِي، وجودي هنا لن يفيدكما في شيء».

عمَّ الصمت للحظات ثم علت ضحكات الأَخوَين حتى لم يستطع الفتى النحيل تمالك نفسه، فسقط على الأرض من شدة الضحك، بعد لحظات تمالك نفسه وقال في سخرية: «هذه أسخف قصة سمعتها في حياتي، هل تظننا أحمقَين أيها الأرمدي، هل تظن أنك ستنجو بكذبتك هذه؟!».

- أقسم إني لا أكذب، هذه هي الحقيقة، أنا لست من أهل الجزيرة.

التفت سعد إلى أخيه وقال في لهجة آمرة: «دعك من هراء هذا المعتوه، راقبه جيدًا ريثما أعود».

- إلى أين ستذهب؟

- سأذهب إلى الخارج لأتفقد هل يبحث عنه أحد أو هل من أحدٍ اقتفى أثره، ولا تنسَ إطعام الجرو حتى لا يصاب بالجنون.

خرج سعد وسعيد من الغرفة وأغلقا الباب خلفهما، كان يونس محتجزًا في غرفة صغيرة في المنزل بها نافذة واحدة موصدة بإحكام وأثاث

follow on telegram: @librarytn

متواضع للغاية، سرير متهالك وطاولة قسا عليها الزمن، تعلوها زجاجات فارغة يوحي ما علق بزجاجها من الداخل أنها كانت تحوي خمرًا يومًا ما.

فتح باب الغرفة ببطء فتحة صغيرة ليدلف منها جرو صغير يدفع كرة خشبية بحجم قبضة اليد، وقف الجرو الصغير ذو اللون الأسـود، الذي كانت تزين عينيه وبطنه رقعة بيضاء، من الفتحة الضيقة في الباب لمح يونس سعيدًا بجسده الضخم في نهاية المنزل، معطيًا ظهره إلى الباب ومنهمكًا في إعداد نوع ما من الطعام، وقف الجرو الصغير أمام يونس يلهث ويهز ذيله الصغير في مرح، خطرت ليونس حينها فكرة فهمس محدثًا الكلب: «هيًا أيها الجرو الصغير أتُريد اللعب، هيًا ادفع لي هذه الكرة».

استجاب الجرو الصغير ليونس ودفع الكرة تجاه قدمه المقيدة فدفعها يونس ناحية الحائط فاندفع الجرو الصغير في مرح إلى الكرة وأعادها ليونس، كَرَّر يونس الأمر عدة مرات وفي كلِّ مرةٍ يزيد من دفعه للكرة فينطلق الجرو أسرع ناحيتها، حتى حانت اللحظة وهمس يونس إلى الجرو قائلًا: «والآن أيها الصغير، هات الكرة أسرع».

ودفع الكرة إلى الطاولة القديمة فانطلق الجرو ناحيتها كالقذيفة ليرتطم جسده الصغير بالطاولة القديمة ليسقط كلُّ ما تحمله من زجاجات على الأرض، وتتهشم إلى قطع صغيرة مصدرة ضوضاء عالية، فرَّ الجرو مسرعًا قبل أن تصيبه قطع الزجاج التي تناثرت في كلِّ مكانٍ، انخلع قلب يونس منتظرًا قدوم سعيد ليكتشف حيلته، مرت لحظات علا بعدها صياح سعيد غاضبًا: «سمسم أيها الجرو الأحمق انتظر لأُنهي ما في يدي وسآتي وأقتلك».

تنفس يونس الصعداء، وبحث بين الزجاج المهشم على الأرض على قطعة حادة حتى وجد ضالته بينها، فألقى بنفسه من فوق الكرسي إلى

follow on telegram: @librarytn

الأرض وزحف حتى استطاع أن يمسكها بيديه المكبلتين، أخذ يُحرّك جانبها الحاد على الحبل الملفوف حول يديه وقدميه حتى انقطع، أسرع نحو النافذة وفتحها بصعوبة ليجد خلفها سياجًا حديديًّا، لم يعد هناك مخرج إلا من خلال الباب الرئيسي، فتح الباب برفق حتى لا يصدر صوتًا، سار على أطراف أصابعه ولكن كان لا بُدَّ له من المرور بموضع سعيد حتى يستطيع الوصول إلى الباب.

اقترب يونس بحذر من سعيد الذي كان يُدندن ببعض الألحان وهو منهمك في إعداد الطعام، التقط عصا غليظة موجودة في باحة الدار، كانت هي العصا التي هوى بها سعيد على رأسه من قبل. مرَّ يونس خلف سعيد بحذر، ولكن تنبَّه سعيد لوجود أحدٍ خلفه، وفي أثناء التفافه باغته يونس وهوى بالعصا على رأسه ضربة أفقدته الوعي.

أسرع يونس إلى الباب للخروج من المنزل، وعندما فتح الباب تفاجأ برؤية سعد الذي قد عاد للمنزل، لم يصدق سعد الأمر فشُلَّت حركته ثواني كانت كافية ليدفعه يونس ليسقط على الأرض ليهرب مطلقًا ساقيه للريح.

ظلَّ يونس يجري بين الطرقات على غير هدًى حتى وقعت عيناه على أحد الأنهار فتتبعه وهو يتلفت بين لحظةٍ وأخرى ليتأكد أنه أضاع الأَخَوَين، كانت أعين سكان المدينة تتبعه أينما ذهب، كيف لأرمدي أن يوجد بالمدينة في يوم غير يوم الاحتفال؟ ظل يونس يجري حتى وصل إلى البحيرة ومنها إلى ساحة الفداء محاولًا بلوغ الممر، ولكن عند وصوله وجد أنَّ الممرَّ قد اختفى، كيف وهو متأكد من وجوده في هذا الموضع، لكن لم يعد له أثر، أسند ظهره إلى الحائط وجلس على الأرض واضعًا وجهه بين كفيه بعدما تقطعت به السبل ليجد نفسه وحيدًا في مدينة غريبة تحت جزيرة معزولة في وسط البحر، هاربًا من اثنين يريدان تشريحَ جسده، لم يكن يتخيل أن

follow on telegram: @librarytn

يحدثَ له كلُّ هذا حتى في أسوأ كوابيسه، لم يعد يدري ماذا يفعل أو إلى أين يذهب.

- ما الذي يفعله أرمدي هنا؟

رفع يونس رأسه ليجد أمامه شابًّا طويل القامة، ذا بشرة داكنة ولحية نابتة، يرتدي قميصًا لم يخفِ عضلاته البارزة، وبنطالًا تلطَّخ أسفله بالطين، ولف حول خصره وشاحًا، ويحمل في يده فأسًا استنتج يونس من هيئته أنه مزارع من أهل المدينة، لم تكن تجربته مع أهل المدينة سعيدة فأوجس في نفسه خيفة، وردَّ عليه في حذر قائلًا: «تأخرت على العودة وعند قدومي وجدت الممر قد أغلق».

ظهرت أمارات الشك على وجه الشاب فقال متسائلًا: «لم نسمع من قبل عن تخلف أحد من المخلصين عن العودة، فيا تُرى ما سبب تأخرك؟».

ليردَّ يونس في أسى: «حاول اثنان من أهل المدينة اختطافي».

تفاجأ الشاب مما قاله يونس، فردَّ قائلًا: «وهل يجرؤ أحد من سكان المدينة على التعرض لأحد من المخلصين!».

- هذا ما حدث.

سكت الشاب هنيهة ثم قال: «ملابس الأرمد التي ترتديها ستثير تساؤلات الناس كلما رآك أحدهم».

خلع الوشاح الذي لفه حول خصره، ثم مدَّ يده به إلى يونس قائلًا: «ضع هذا على كتفك كي لا يشك بك أحد، واتبعني سأجد لك ما ترتديه».

تردد يونس في اتِّباعه ولم يتحرك فاستشعر الشاب تردده، وابتسم قائلًا بنبرة ساخرة: «لا تقلق أنا لست معتوهًا لأختطف أحدًا من رعايا العم عياش، بالمناسبة ما هو اسمك؟».

- اسمي يونس.

follow on telegram: @librarytn

- وأنا مالك، هيا اتبعني.

سار يونس خلف مالك عابرًا ساحة الفداء والبحيرة، ثم سارا بمحاذاة النهر الثاني مرورًا بالقرب من أحد الحقول، فأشار مالك ناحيته وقال: «أنا أعمل مزارعًا وقطعة الأرض الصغيرة هذه ورثتها عن أبي رحمه الله».

لم يعقب يونس واكتفى بأن هزَّ رأسه فقط، أحسَّ مالك بقلقه الذي لم تستطع ملامحه أن تخفيه، فأردف مالك قائلًا: «صدقني أنا لا أريد لك أذًى، فأنا أعلم جيدًا معنى أن تكون وحيدًا في هذه المدينة، لقد مات أبي وأمي وأنا لم أبلغ العاشرة ووجدتني وحيدًا وسط هذه المدينة، لم يعطف عليَّ قريب أو جار، الجميع أغلقوا أبوابهم أمامي، لم يرد أحد أن يتحمل مسؤوليتي وأنا في هذه السن، لم يكن لي في الحياة سوى هذه الأرض ولولاها لما كنت حيًّا حتى هذه اللحظة، فصدقني أنا أكثر من يحس بغربتك».

طمأنت كلماته يونس، شعر بأنَّ مالك مختلفٌ عن الباقين فأحس بألفة ناحيته، وأنه من الممكن أن يثق به فقال: «وعلى الرغم من تجربتي السيئة مع أهل المدينة، فإنَّ لديَّ شعورًا داخليًّا بأنني أستطيع الوثوق بك، فأرجوك لا تخن هذه الثقة».

- حسنًا، لنكمل المسير.

تابعا سيرهما في الشوارع الضيقة بين البيوت المتداعية التي أهلكها الزمان حتى وصلا إلى منزل مبني من الطوب اللبن، مكون من دور واحد وله باب خشبي قديم، دفع مالك الباب ودلف إلى داخل البيت ثم نادى قائلًا: «هيا يونس اتبعني».

دلف يونس إلى داخل البيت، كان بيت مالك متواضعًا للغاية، حجرة معيشة صغيرة تحتوي على فرش من الحصير مُدَّ على الأرض وفوقه طبلية خشبية، وعدة وسائد استحال لونها إلى الأصفر، وبجانب الباب وضعت

follow on telegram: @librarytn

خزانة خشبية صغيرة لها دَرْفتان لحفظ الطعام، وألحقت بحجرة المعيشة غرفتان بكلٍّ منهما سرير عتيق وخزانة ملابس قديمة، كان بيت مالك على الرغم من تواضعه فإنه شديد النظافة والنظام، أشار مالك إلى إحدى الغرف التي على اليمين وقال: «هذه غرفة أبي وأمي -رحمهما الله- ستبيت فيها وهذه غرفتي أنا، والآن هيا لنتناول بعض الطعام».

وبجوار الطبلية الصغيرة جلس مالك وبرفقته يونس، مدَّ مالك يده إلى الخزانة الصغيرة وأخرج منها بضع كسرات من الخبز والجبن القديم وبعض ثمرات الزيتون وبعض عيدان الجرجير، وضع مالك الطعام على الطبلية أمام يونس وقال: «اعذرني على بساطة الطعام، أَعْلَمُ أنَّ المخلصين معتادون طعامًا أفضل من هذا، لكن الجود بالموجود».

- لا تقل هذا، يكفي استضافتك لي في منزلك.

قال مالك متسائلًا: «أخبرني يا يونس، ماذا كانت حرفتك في المدينة العُلوية؟».

لم يتوقع يونس السؤال، ولكنه كان قد عزم على عدم إخبار مالك بحقيقة الأمر حتى لا ينقلب عليه، فقد اختُطِف سابقًا عندما ظنوا أنه من الأرمد، فماذا سيحدث له إذا علموا بأنه الطبيب الخاص بالعم عياش، فردَّ بتوترٍ قائلًا: «كنت أعمل في دكان إسكافي».

ليردَّ مالك مازحًا: «يبدو أنك لم تكن ماهرًا في عملك».

وأشار إلى حذاء يونس الذي كان قد تمزق من أثر المطاردة فضحك يونس مجاملًا، فرغوا من الطعام وتوجه يونس إلى غرفته، ألقى بنفسه على السرير، ما هذا العالم الذي دخل فيه، لو أنَّ أحدًا أخبره بأنَّ كلَّ هذا سيحدث له منذ أشهر فقط، لكان وصفه بالجنون لم يكن يتخيل أن حياته الهادئة ستنقلب رأسًا على عقب، هكذا ظل يحدق إلى النافذة المواجهة لسريره شارد الذهن، سمع صوتَ طرق خفيف على النافذة أفاقه من

follow on telegram: @librarytn

شروده، ثم أصبح الطرق أعنف، وازدادت قوته حتى انكسرت النافذة وسقطت على الأرض ليظهر من فتحتها الأَخوَان سعد وسعيد.

قفزا من فتحة النافذة واندفعا ناحية يونس المُمَدَّد على السرير، الذي شُلَّ جسده من الصدمة فلم يستطع الحركة، كبَّلا يديه وقدميه بالسرير، وفتح سعد حقيبة قماشية كانت محمولة على ظهره، وأخرج منها سكينًا شحذ نصله جيدًا أعطاه لأخيه الضخم الذي كان ينظر إلى يونس ويبتسم في انتصار ومشرط بدائي أمسكه بيده، وقال بلهجة متشفية وعيناه يتقاذف منهما الشرر: «لقد اقتنعت برأيك يا سعيد، لا بُدَّ أن سرَّ قوة هذا التعيس في مخه وقلبه، هيَّا نستخرجهما لعلنا نحصل على القوة مثله».

ظلَّ يونس يصرخ بكلِّ ما أوتي من قوة: «أطلقا سراحي، أنا لست من هذه الجزيرة، أَطْلِقا سراحي».

أحسَّ بجسده يهتز بعنف وهو مستمر في صراخه.

«يونس، يونس أَفِق»... كان هذا صوت مالك يوقظ يونس من كابوسه، اعتدل يونس في موضعه وجبينه يتصبب عرقًا فما رآه كان حلمًا، ناوله مالك كوبًا من الماء فشرب حتى هدأت أنفاسه، قال مالك: «يبدو أنه كان كابوسًا مُروِّعًا».

- أكثر مما تتصور.

همَّ مالك بالوقوف وقال: «كنت أوقظك لأخبرك أنني سأتوجه إلى الحقل، فأخبرني إذا كنت تحتاج إلى شيء أجلبه لك عند عودتي».

سأله يونس: «هل من الممكن أن آتي بصحبتك إلى الحقل؟».

ردَّ مالك على الفور: «بالطبع يمكنك القدوم، فأكتسبُ رفيقًا يُسليني في ساعات العمل الطويلة، انتظر حتى آتي لك ببعض الملابس حتى لا

follow on telegram: @librarytn

تثير ملابسك التساؤلات وستكون فرصة جيدة لتشاهد مدينتنا، أعلم أن المخلصين عادة لا يهتمون برؤية المدينة السفلية».

ذهب مالك إلى غرفته للحظات وعاد حاملًا قميصًا وبنطالًا مشابهين لما يرتديهما، ارتدى يونس الملابس وانطلقا في طريقهما إلى الحقل، في الطريق ظلَّ يونس يتفحص المدينة بتركيز أكثر، بيوت أهل المدينة كلها متنوعة بين بيوت فخمة، ولكن ليس لدرجة بيوت بني الأشهب، وبيوت متداعية قديمة كبيوت الأرمد.

الأشعة الذهبية الساقطة من الأحجار في السقف تعطي انعكاسًا على أحد أنهار البحيرة فتعطيه جمالًا لا يتماشى مع الكآبة التي كانت تُخيِّم على بيوت المدينة، كان تنظيم أحياء المدينة السفلية لا يختلف كثيرًا عن المدينة العُلوية، مناطق سكنية متراصة بجانب بعضها بعضًا، ومنطقة وسطى للسوق الذي كانت جميع أحياء المقاطعة تؤدي إليه، وكانت المناطق السكنية تختلف بين مناطق مخصصة للأغنياء، ومنازلهم التي تقع بالقرب من البحيرة المقدسة، ومناطق للفقراء كانت موجودة كلما ابتعدنا للداخل.

كان الاختلاف الكبير بين المدينة العُلوية والسفلية وجود مناطق للورش والمصانع والحقول التي غابت تمامًا عن المدينة العُلوية فلم تكن تحتوي إلا على الدكاكين لبيع السلع فقط.

تابعا سيرهما حتى وصلا إلى الحقل، كان حقلًا صغيرًا مُطلًّا على ضفة أحد الأنهار الخمسة، شمَّر مالك عن ذراعيه ورفع الفأس عاليًا، وهوى بها ليشق الأرض في منظر سنيمائي، وقال ملتفتًا إلى يونس: «هيَّا بنا لنبدأ العمل».

كانت خبرة يونس في أمور الزراعة شبه منعدمة لا تتجاوز معرفته الاعتناء بعيدان النعناع والريحان التي كانت موجودة في نافذة غرفته، لذا فقد أمضى وقته بين مناولة الأمتعة لمالك تارة وبين تقليده في حرث

follow on telegram: @librarytn

الأرض تارة أخرى، والحق أن مالك كان شديدَ الصبر في تعليم يونس، بل الأوقع أنه كان شديدَ السعادة، فأخيرًا وبعد سنين وجد رفيقًا وصاحبًا يمضي معه ساعات يومه بعدما كان يمضيها وحيدًا منذ الصغر.

مرت ساعات العمل سريعًا، لون أحجار السقف قد تحوَّل تدريجيًا من اللون الأصفر الذهبي إلى اللون الأزرق، فَهِم يونس حينها أن الليل قد أتى تحت الأرض، اغتسل يونس ومالك في مياه النهر وعادا للبيت. مرت الأيام التالية بالوتيرة نفسها يستيقظان صباحًا ويذهبان إلى الحقل ويقضيان ساعات النهار بين حرث ووضع للبذور وسقاية للأرض.

فهم يونس أكثر عن طباع أهل المدينة السفلية ومعتقداتهم، وعلم أن أهل المدينة منقسمون بين مؤيدٍ ومحبٍّ لبني الأشهب، وكارهٍ وساخط عليهم حتى أتى اليوم الذي تغيَّرت فيه أيامه وانقلبت حياته كلها رأسًا على عقب.

في أحد الأيام استيقظا من نومهما وتوجها إلى الحقل، أمضيا بضع ساعات في العمل حتى أخبر مالك يونس بأنه سيذهب إلى شراء بعض احتياجات الحقل، ذهب مالك وجلس يونس على ضفة النهر منتظرًا عودته، كان الجو جميلًا، نسمة هواء باردة داعبت وجهه وأوراق الشجر بجانبه، والأشعة الذهبية سقطت على مياه النهر فصبغتها بلونها، والعشب المبلل بقطرات الماء جعله يشعر بأنه في الجنة، أمسك يونس بغصنٍ يابس، وظل يداعب التربة المبللة أمامه بعدما أسند ظهره إلى شجرة بجانب الماء الجاري ليسمع صوتَ عزفٍ على الناي، طرب معه قلبه وروحه قبل أذنه، نظر ناحية مصدر الصوت فرآها..

فتاة في مطلع العشرينيات من عمرها، ذات بشرة خمرية كأنها تشربت من خمر الجنة وعينين زيتيتين تكفي نظرة واحدة منهما لإنهاء حروب العالم، وشعر أسود مضفر على هيئة غصن زيتون تدلَّى على كتفها، ترتدي

follow on telegram: @librarytn

فستانًا أبيضَ، وتحمل الناي بين يديها، فتطرب لأنغامه جميع الموجودات وليس يونس وحده، كانت جالسة على العشب الرطب في الضفة الأخرى من النهر، ومن حولها أشجار الفاكهة المثقلة بالثمار الناضجة.

قال يونس في نفسه: «إذا لم تكن هذه حورية من الجنة فمن تكون؟».

ظلت الفتاة جالسة تعزف على الناي غير منتبهة ليونس الذي كان يراقبها هائمًا في نغمات الناي وصاحبته، فظل يتابعها وأصابعها تتحرك بسلاسة على فتحات الناي، يقطع لحظته السعيدة صوت مالك الذي قد عاد قائلًا: «التاجر الجشع كان يريد ضعف الثمن».

التفت يونس إليه فتنبهت الفتاة إلى وجوده فاكتست وجنتاها بحُمْرة الخجل وقامت مسرعة، وفي أثناء الانصراف حانت منها التفاتة تلاقت فيها عيناها بعينَي يونس فابتسمت وانصرفت مسرعة. شعر يونس حينها أن له جناحيْن يطير بهما بعيدًا حتى اقترب من النجوم، وكانت هي أجمل هذه النجوم، أفاقه صوت مالك مرة أخرى قائلًا: «هنيئًا لمن أخذ عقلك».

نظر مالك حيثما كان ينظر يونس فرأى الفتاة تسير مبتعدة بين الأشجار حتى اختفت عن الأنظار، تبينها مالك على الفور فامتقع وجهه واستدار ناحية يونس قائلًا: «أرجوك أخبرني أنك لم تعجب بلين».

قال يونس وهو لم يَفِقْ بعد من هيامه: «اسمها لين! فعلًا اسم على مسمى».

قال مالك في نبرة غاضبة لم يسمعها يونس من قبل: «أَفِق يا يونس، الأمر جَدي، لم تجد سوى لين لتقع في حبها!».

- ما الأمر يا مالك وما المشكلة إذا أحببتها؟

follow on telegram: @librarytn

سكت مالك هنيهة كأنه لا يفهم كيف يسأل يونس مثل هذا السؤال، ثم أجاب: «فضلًا عن أنها من المقاطعة الثالثة فهي ابنة زعيم العشيرة، وتنحدر من نسل الملك داوود».

ظهرت على يونس علامات عدم الفهم فقال: «لم أفهم بعد المشكلة».

فرد مالك متعجبًا: «لا تفهم ما المشكلة! يبدو أنك لا تعرف شيئًا عن هذه المدينة، حسنًا، اجلس سأفهمك».

follow on telegram: @librarytn

(8)

في صحن الدار جلس مالك وأمامه يونس، وبدأ مالك يقص حكايته عن الجزيرة التي رويت لهم وتناقلوها قائلًا: «بعد نهاية العالم وانتقالنا إلى العيش تحت الجزيرة، نشب نزاع بين قادة العشائر الخمسة المكونة للجزيرة على أماكن الاستيطان الجديدة لكلِّ عشيرةٍ في الأرض الجديدة، وتطور النزاع بينهم إلى كراهية، وتطورت الكراهية إلى عداء والعداء تحول إلى حرب استمرت لشهور راح ضحيتها العشرات من خيرة شباب العشائر بسبب جشع زعماء العشائر وقتها، ورغبة كلٍّ منهم بالاستئثار بثروات الأرض الجديدة، حتى ظهرت مطالبات بالاحتكام إلى زعيم بني الأشهب، الذي أنهى النزاع وأمر بحفر خمسة أنهار منبعها البحيرة، قسمت المدينة إلى خمس مقاطعات، استقرت كلُّ عشيرةٍ في مقاطعة منها بمعزل عن باقي العشائر، ومنع علاقاتٍ أو اتصالٍ أو تزاوجٍ بين المقاطعات منعًا لنشوب الحرب من جديد».

قاطعه يونس متسائلًا: «اعذرني، ولكن ما الذي تقصده بنهاية العالم؟».

- ماذا أقصد بنهاية العالم؟! يبدو أنك لا تعرف شيئًا عن الجزيرة وحدها، ولكنك لا تعرف شيئًا عن العالم كله.

follow on telegram: @librarytn

- أرجوك يا مالك اعتبرني فاقدًا للذاكرة، واحكِ لي القصة من البداية.

هزَّ مالك رأسه في نفاد صبر وقال: «حسنًا أيها الغريب، منذ زمنٍ بعيد كما من المفترض أنك تعلم، وصلت إلى جزيرتنا جماعات بني الأشهب وأعوانهم والأرمد، ومكثوا بيننا لفترة حتى أتت النهاية، ولولاهم لما كنا موجودين حتى الآن».

قاطعه يونس قائلًا: «آه، ما هي هذه النهاية وماذا فعل بنو الأشهب لينقذوكم منها؟».

ردَّ عليه مالك غاضبًا: «دعني أكمل كلامي وستعرف كلَّ شيءٍ».

ثم سكت هنيهة وأردف بعدها قائلًا: «من مئات السنين كان يومًا عاديًّا، سار كلُّ شيءٍ بشكلٍ طبيعيٍّ حتى موعد الظهيرة، وعند انتصاف الشمس في السماء ظهر القمر فجأة كأنه وحش أفاق من سُباته، وفي لحظات كان قد انطلق إلى الشمس، ذُهل الجميع عندما رأوا القمر يبتلع الشمس ويخفت ضوؤها بالتدريج حتى أفلت، وساد الظلام حتى إنَّ البعض فقدوا أبصارهم لهول ما رأوا، ساد الخوف والفزع في أنحاء الجزيرة، ظن الجميع أنها النهاية ولكن القدرَ كان رحيمًا بنا فأرسل إلينا المخلصين».

توقف للحظات ارتشف خلالها بضع قطرات ماء من كوب كان بجواره في برود، ولهب الفضول يكاد يلتهم عقل يونس، انتهى من شرابه ثم أردف قائلًا: «بعدما عمَّ الفزع الجزيرة حتى إن فرسانها وحكماءها جلسوا يبكون كالأطفال طالبين المغفرة على ما ارتكبوه من ذنوب، صعد عمران الأشهب زعيم المخلصين على ربوة عالية في شجاعة، ونادى في الناس بأن يلجأ الجميع إلى الجبل كي لا يفقدوا أبصارهم، وشرع المخلصون في توجيه الناس إلى الكهف الكبير في الجبل، مكث الجميع في الكهف لساعات، حتى اتفق الجميع على أن يبعثوا وفدًا من شباب الجزيرة ومعهم جنود بني الأشهب ليتفقدوا الأوضاع، ويستطلعوا ما حدث في الخارج، فأرسلت

follow on telegram: @librarytn

كلُّ عشيرةٍ أحد شبابها ومعهم خمسة من جنود بني الأشهب، فكانت فرقة من عشرة أفراد، خرج الشباب من الكهف حاملين آمال الجميع، غابوا في الخارج لساعات ثم عادوا، ولكن لم يعد جميعهم، لقد عاد ثلاثة فقط من الوافدين من خارج الجزيرة، عادوا بثياب ممزقة وأعين دامية من كثرة البكاء، جثا قائد الفرقة على ركبتيه أمام الزعماء وظلَّ يلهث وأنفاسه تتابع في فزع حتى هدأ وأخبرهم عمَّا رآه في الخارج».

سأل يونس في فضول: «ماذا وجدوا في الخارج؟».

أجاب مالك بصوت خافت يوحي بأهمية ما يقول: «أخبرهم قائد الفرقة أنهم بعدما خرجوا من الكهف وجدوا ضوءَ الشمس قد اختفى تمامًا، وأنَّ قرصَ الشمس المضيء أصبح معتمًا بعدما ابتلعه القمر، وأصبح العالم بالخارج في ظلام دامس، نظر شباب الفرقة عن جهل ناحية القرص المعتم ففوجئوا بتصاعد صريخ الشباب من أهل الجزيرة الذين أتوا معهم، إذ بدأت مُقلُ أعينهم بالاحتراق حتى أصابهم العمى، ظلوا يصرخون ويجرون في فزع في كلِّ مكانٍ، ولكن ما رآه جنود بني الأشهب من جهة البحر كان أبشع مما يتصوره عقل جعلهم ينشغلون عمَّا أصاب رفاقهم».

سكت مالك لحظات عن قصد ليزيد من التشويق، بلغ فيها الحماس من يونس مبلغه فأردف بعدها قائلًا: «ثار البحر وانتفضت أمواجه وانشق لتخرج منه وحوش مرعبة، لم يروا لها مثيلًا من قبل، وحوشًا مخيفة بأنيابٍ ضخمة وأجساد عظيمة وأظفار مشحوذة كالسكين وأعين دامية كالشياطين، وفي سرعة البرق هاجموا الفرقة التي لم تكن قد أفاقت بعد من هول المفاجأة، فتفرقوا في فزع استطاعت الوحوش النيل من الشباب الذين أصابهم العمى ولم يتبينوا الطريق، وعندما حاول الشباب من خارج الجزيرة الدفاع عنهم راح منهم اثنان، استطاع الثلاثة الباقون أن يستعيدوا رابطة جأشهم وواجهوا الوحوش في معركة ضارية استطاعوا بعدها

follow on telegram: @librarytn

الفرار حاملين معهم ما استطاعوا حمله من أشلاء رفاقهم، وناب عملاق لأحد الوحوش الذين اقتلعوه بعدما استطاعوا قتله.

تعالت صرخات النساء والأطفال، وكسا الرعب وجوه الرجال عندما رأوا الناب العملاق الذي وضعه قائد الفرقة أمام الزعماء، وتعالت الهمهمات مكسوة بخليط من المشاعر بين حزن على فراق خيرة شباب الجزيرة، وبين خوف ورعب من مصير مجهول ينتظرهم خارج الكهف حيث هناك وحوش لا تعرف الرحمة.

كان للعشائر في ذلك الوقت ملك واحد يُدعى «داوود»، دعا زعماء العشائر وكان معهم زعيم الوافدين من خارج الجزيرة عمران الأشهب، كان الملك داوود متعجرفًا لم يصدق أن مُلكه انتهى، وظلَّ يردد أن كلَّ هذا حيلةٌ وخدعةٌ، كان يريد أن يلقي بأبناء الجزيرة إلى التهلكة، وأن يخرج الجميع إلى مواجهة الوحوش، اعترض زعماء العشائر ورفض كلٌّ منهم أن يخرج شباب عشيرته ليلقوا مصرعهم خارج الكهف، كانت هذه هي المرة الأولى التي عصى فيها زعماء العشائر أمرًا للملك داوود، وانقسمت غرفة الاجتماع بين مؤيدٍ ومعارض، واحتدم الخلاف بينهم حتى تدخل عمران الأشهب وأخبرهم بأن أهل الجزيرة أكرموهم وآووهم عندما طردهم الجميع، ومن واجبه وقومه أن يدافعوا عنهم ردًّا للجميل، فأخبرهم بأنه وقومه عارفون بفنون القتال ولهم خبرة سابقة، فسيخرج هو ورجاله خارج الكهف لحمايتهم من الوحوش».

قاطعه يونس مرة أخرى قائلًا: «وكيف سيحدث هذا ومن ينظر إلى السماء يصبه العمى؟».

ردَّ عليه مالك: «هذا هو السؤال الذي سأله أحد الزعماء لعمران فكانت إجابته بأن رجاله لم يتأثروا بأفول الشمس عند خروجهم من الكهف، وهذه

follow on telegram: @librarytn

بالتأكيد منحة من المولى جزاء لصبرهم على البلاء والتهجير اللَّذين قاسوه في بلادهم من الملك الظالم.

المهم خرج عمران الأشهب وجنوده من الكهف وسط تهليل وشكر من أهل الجزيرة على حمايتهم، تاركين فرقة من الجند لتكون خط الدفاع الثاني وتحمي أبناء الجزيرة في حالة استطاع أحد الوحوش العبور إلى الكهف.

مرَّ اليوم الأول وعاد عمران الأشهب وجنوده الذين قلَّ عددهم بسبب فقدان الكثيرين منهم في حربهم ضد الوحوش، اجتمع عمران بالملك داوود وزعماء العشائر وحكى لهم عما رآه في الخارج، الظلام قد حل، والشمس أفلت، وانتشرت الوحوش في كلِّ مكانٍ والأرض بالخارج لم تعد مأهولة ليعود لها الناس مرة أخرى إلا من تل استطاع رجاله تطهيره من الوحوش، واقترح أن يصطحب نساء وأطفال بني الأشهب بسبب تمتعهم بقدرات الرجال نفسها من العيش في الظلام، وحتى يفسحوا المجال لباقي العشائر بعدما ضاق الكهف عليهم بسبب كثرة أعدادهم، وافق جميع الزعماء إلا الملك داوود الذي عاند واتهم عمران بالكذب، ودعا زعماء العشائر إلى الخروج من الكهف ليكتشفوا حيلة عمران للاستيلاء على جزيرتهم، لكن لم يجبه أحد من الزعماء، وأجمع الكلُّ على أنهم لن يضحوا بشبابهم وحتى عشيرته التي هو زعيمها تخلوا عنه وقاموا بخلعه من منصبه وتعيين ابنه خلفًا له.

أصرَّ الملك داوود على الخروج وخرج بالفعل وسط نظرات الجميع، انتظر الجميع بأمل ضعيف عودة الملك، ولكن بعد ساعات عاد أحد الجنود حاملًا عمامة الملك ملطخة بالدماء، وملابسه ممزقة بآثار مخالب ودماؤه عليها، وخاتمه الفضي الذي كان يحمل اسمه، وضع الجندي المتعلقات

follow on telegram: @librarytn

أمام ابن الملك داوود، وقال في أسى إنه حاول حمايته ولكن لم يستطع بعدما فقد الملك بصره.

أمر عمران الأشهب بإقامة جنازة كبيرة للزعيم الراحل ودفن جثمانه في الكهف، شهدت الأيام التالية أحداثًا عظيمة، بدأ مخزون المؤن في النفاد، وأصبحت كلُّ عشيرةٍ تتأثر نفسها بما تملك دون مشاركته مع باقي العشائر حتى عن طريق البيع، فساد التوتر بين العشائر، وأغلقت كلُّ عشيرةٍ على نفسها، وانعزلت في ركنٍ من الكهف عن الباقين، ومع الوقت بدأت كلُّ عشيرةٍ في الإغارة على الأخرى سعيًا وراء ما معها من مؤن، فشكلت كلُّ عشيرةٍ فِرقًا من شبابها لحمايتها من غارات الآخرين ومهاجمتهم إذا تطلب الأمر.

اشتد النزاع بين العشائر وسقط العشرات والعشرات من الضحايا من الجميع، كان الوضع يوحي بكارثة قادمة، لم تعد تتحمل العشائر العيش في مكان واحد فسعوا للقضاء على بعض، حتى دعا عمران الأشهب إلى اجتماع بين الزعماء واستطاعوا فيه التوصل إلى اتفاق لوقف القتال بينهم، وظهرت في الأفق بوادر عودة السلام، وأن أهل الجزيرة سيتحدون مرة أخرى، ولكن أجدادنا كانوا يسعون خلف التعب والشقاء بكلِّ قوتهم، ظن الجميع أنها نهاية العذاب، ولكن لم تكن هذه سوى البداية، وأن ثورة البركان الحقيقية لم تكن قد أتت بعد».

سأله يونس: «ما الذي حدث؟».

تابع مالك حديثه قائلًا: «انتهى الاجتماع على وقف القتال وعودة السلام، ولكن في اليوم التالي استيقظ الجميع على صراخ نساء إحدى العشائر، فقد اشتعلت النيران بمخازن الغلال والمؤن وكادت تودي بحياة نساء وأطفال، اتهم زعيم العشيرة العشائر الأخرى بخرقهم الصلح وإشعال النيران في مخازنه عمدًا وتوعَّد بالردِّ، وفي اليوم التالي وُجد في حوش إحدى العشائر

follow on telegram: @librarytn

أحد شبابها مقتولًا على الأرض، طُعن في جسده طعنات متفرقة، وزعم أحد أفراد القبيلة أنه رأى رجالًا ملثمين يفرون إلى حوش القبيلة المجاورة.

كانت هذه هي القشة التي قسمت ظهر البعير والشرارة التي أعلنت اندلاع الحرب مرة أخرى بصورة أبشع من مرةٍ سابقةٍ، حدثت مقتلةٌ عظيمةٌ بين القبائل لم تشهدها أرض الجزيرة من قبل، تخلى فيها أهل الجزيرة عن مبادئهم، فلم يفرقوا في الحرب بين رجل وامرأة أو طفل أو عجوز، الكلُّ مباحٌ دمه ما دام ينتمي إلى العشائر الأخرى، ولم تنفع وساطة أو محاولة لوقف الحرب حتى من عمران الأشهب نفسه.

مات الكثير وانخفض تعداد العشائر في أيام لأكثر من النصف، الدماء كانت تجري في أرض الكهف بالنهر الجاري الذي لا يجف منبعه، حتى أيقن الجميع أن قيامة هذه الجزيرة قد قامت وأن النهاية قادمة، ولا مهرب لهم من الفناء حتى أتى اليوم الموعود».

وفرد مالك جسده وحرَّك رقبته فأصدرت صوت طقطقة، علامةً على طول جلوسه وإرهاقه ثم تابع قائلًا: «كانت الحرب بين العشائر في أُوجها كالنار التي تأكل كلَّ ما يعترض طريقها، وسقط فيها عشرات الضحايا ممن لا ذنب لهم، حتى أتى اليوم الذي كان يوافق موعد اكتمال القمر، كان البدر يتوسط السماء «كما أخبرنا المخلصون فيما بعد»، كان القتال محتدمًا بين العشائر، والدماء المسفوكة تملأ المكان، وفجأة توقف الجميع عندما وجدوا الجدار في آخر الكهف يتوهج ويشع ضوءًا كأنه نجم، بدأت بعدها أرض الكهف في الاهتزاز فأصاب الجميعَ الهلعُ ليجدوا الجدار المتوهج ينشق كأنه بوابة فتحت على مصراعيها، ومن خلفها ممر منحدر إلى الأسفل، وقف الجميع في اندهاش غير مصدقين ما يحدث كأن على رؤوسهم الطير من هول ما رأوا، أفاق الجميع من سباتهم بعد لحظات

follow on telegram: @librarytn

كانت كافية لوصول عمران الأشهب بعدما وصله الخبر من أحد رجال حاميته الذي تفاجأ هو الآخر عند وصوله.

كان السؤال الذي يدور في أذهان الجميع إلى أين يؤدي هذا الممر؟ اتفق الزعماء على وقف الحرب وإرسال فرقة مكونة من اثنين من كلِّ عشيرةٍ، ومعهم اثنان من جنود بني الأشهب، تزودت الفرقة بالعتاد والسلاح والمؤن ودلفت إلى داخل الممر، غابت لدقائق ثم عادت غير مصدقة ما رأت.

طالبت فرقة الاستطلاع زعماء العشائر وعمران الأشهب وصديقه ومساعده سليمان الأرمدي بالقدوم لرؤية ما وجدته بأنفسهم، وعندما وصلوا إلى نهاية الممر وجدوا عالمًا آخرَ جديدًا، لم يعرفوه من قبل، أرضًا واسعة ممتدةً أمامهم، ملآنة بالخيرات، سقفًا كأنه الماس، وبحيرةً عظيمةً تكفي الجميع.

صاح أحد الزعماء لا بُدَّ وأن تكون هذه هي الجنة، ليرد آخر في الإثارة نفسها بل هي فرصة جديدة منحنا إيَّاها المولى عز وجل، لنبدأ الحياة مرة أخرى. وفي الحال عاد الجميع للكهف، وأمر كلُّ زعيمٍ عشيرته بحزم الأمتعة وشد الرحال إلى الأرض الجديدة، عبرت العشيرة الأولى ومن ثَمَّ الثانية وتبعتها الثالثة وعندما أوشكت العشيرة الرابعة والخامسة على العبور أُغلق الممر واختفت الفتحة في الجدار بلا أثر.

لم يفهم أحد ما حدث، وقال أحد الناس إن الأرض اكتفت بمن أخذت من أناس، وبدأ آخر بإلقاء اللوم على العشيرة الأخرى مدعيًا أن الممرَّ أُغلق لمنع عبورها لما ارتكبته من معاصٍ وذنوب، ودافعت العشيرة عن نفسها بأن العشيرة الأخرى هي السبب، واشتد الخلاف بين العشيرتين، ودار قتال بينهما امتدَّ إلى شهر آخر، حتى أتت الليلة نفسها اكتمل فيها القمر بدرًا، وتشربت أرض الكهف بالدماء، فاهتوت الأرض وفتح الممر مرةً أخرى.

follow on telegram: @librarytn

عبرت العشيرتان المتبقيتان إلى الأرض الجديدة، ولكن على عكس المتوقع فقد ظنت العشائر الثلاثة التي عبرت أن الممر لن يُفتح مرةً أخرى، وقاموا بتقسيم الأرض الجديدة بينهم، ولم يعملوا حسابًا للعشيرتين المتبقيتين وعند قدومهما ضاقوا بهما، وأرادوا أن تعيش هاتان العشيرتان في أرض نائية بعيدة عن البحيرة، وهو ما رفضته العشيرتان ورأَيَا أن لهما حقًّا في الأرض الجديدة كباقي العشائر، فاشتعل النزاع مرة أخرى، وشهدت الأرض الجديدة في مهدها حربًا أخرى للعشائر، ولكن الوضع هذه المرة كان قد اختلف عن سابقه، فقد مات الكثير من الرجال والشباب، كانت القبائل توشك على الفناء عن بَكْرة أبيها، فتدخل عمران الأشهب وأعلن زعماء العشائر أنهم راضون بحكمه.

كان حكم عمران الأشهب أن تُحفر من البحيرة خمسة أنهار، بين كلِّ نهرٍ وآخر تعيش عشيرة في مقاطعة خاصة بها بمعزل عن باقي العشائر، ويُمنع منعًا باتًّا التواصل أو الزواج أو البيع والشراء بين العشائر اتقاءً لنشوب الحرب مرةً أخرى، وأن كلَّ مقاطعةٍ ستكون مستقلةً بحكمها عن الباقين، وتخضع جميع المقاطعات في النهاية لحكم بني الأشهب، حتى يمنعوا أيَّ خلافٍ مستقبلي من الممكن أن يؤدي إلى حروب أخرى كما حدث في السابق، وأن يبقى دائمًا بينهم أحد من بني الأشهب ورجاله على رأس حامية من الجنود لإدارة المدينة والإشراف على زعماء العشائر، ومنع وقوع فتنةٍ مرةً أخرى، وأعلنوا أن هذا اليوم سيكون يوم عيد أسموه «عيد الفداء» كتذكير بأنَّ بني الأشهب افتدوا أهل الجزيرة بأنفسهم من أجل حمايتهم، وأن على جميع ساكني الأرض الجديدة أن يقدموا جزءًا من أرباحهم يقدره بنو الأشهب وأسموه «واجب الامتنان» حتى يستطيع بنو الأشهب استخدامه في حمايتهم من الوحوش التي تتجول في أنحاء الجزيرة، ومن يومها لا يجرؤ أحدٌ على خرق هذا الاتفاق وإلا كان مصيره أن يُزجَّ به في السجن،

follow on telegram: @librarytn

حتى إنَّ أخبار العشائر الأخرى انقطعت عنَّا، فأصبحنا لا نعرف عنهم إلا القليل، وهذه يا صديقي هي قصة أهل المدينة».

صمت يونس لحظات مرت كأنها دهرٌ، ثم سأل مالك قائلًا: «وما هو رأي أهل المدينة في بني الأشهب بعد كلِّ هذه السنين؟».

- أهل المدينة منقسمون بين مؤيدٍ لبني الأشهب يرى أنهم المخلصون وواجبٌ علينا السمع والطاعة لهم بعدما أنقذونا من النهاية، وفريقٍ آخر قد سأم حكمهم وتحكمهم في كلِّ شيءٍ والضريبة الباهظة التي يأخذونها، والتضييق على الناس في حياتهم، ولكن لا يملكون أن يفعلوا شيئًا بعدما انتهى العالم، فإذا تمرَّدوا ستأتي الوحوش وتفتك بالجميع.

- وأنت ما رأيك؟

ليردَّ مالك: «أنا مجرد مزارع ما يهمني أن أجد قوت يومي فقط».

استجمع يونس رباطة جأشه ثم ألقى بالقنبلة التي لا يدري ماذا سيكون تأثيرها على مالك قائلًا: «حسنًا يا أخي، لا أعلم كيف سيكون تأثير كلماتي عليك، ولكن العالم في الخارج لم ينتهِ».

تجمَّدت ملامح مالك للحظات ثم قهقه في سخرية قائلًا: «مزحة ليست جيدة هذه المرة، ابحث عن واحدةٍ أفضل».

تابع يونس بالنبرة نفسها الجادة قائلًا: «أنا لا أمزح يا مالك، العالم لم ينتهِ بالخارج».

تبدلت ملامح مالك ليكسوها خليطٌ من الصدمة والاستنكار، قال في عدم تصديق: «الكارثة أنك إن لم تكن تمزح، فبالتأكيد أنك فقدت صوابك، أو أن عقلك قد مَسَّه الجنون هذا كلام لا ينطق به عاقل».

follow on telegram: @librarytn

قال يونس مدافعًا عن نفسه: «صدقني يا مالك أنا لا أكذب والدليل أمامك، أنا لست من هذه الجزيرة من الأساس، أنا طبيب قدمت من خارج الجزيرة من أجل علاج العم عياش».

نهض من مكانه والمفاجأة قد كست وجهه بكلِّ علاماتِ الفزع والذهول كأنه انفصل عن العالم حوله، وقال في توتر: «اسمع، كلامك هذا إما أن يسبب لك القتل، وإما سيقودك إلى السجن، وأنا لا أريد أن يحدث لي من الأمرين؛ فأنا رجلٌ بسيطٌ كلُّ ما يهمني أن أحصل على قوتٍ يكفي يومي فقط؛ من الآن كلٌّ منَّا في طريقه».

انصرف مالك من الغرفة تاركًا يونس يفكر هل أخطأ عندما أخبره الحقيقة، خرج يونس من المنزل وسار على غير هدى، لا يعلم إلى أين يذهب أو ماذا يفعل، ظل هائمًا في الشوارع لساعات حتى وجد مالك أمامه في إحدى الطرقات، اقترب مالك والخجل يكسو وجهه، ووقف أمام يونس قائلًا: «كنت أبحث عنك لساعات، ما كان يجب عليَّ أن أتركك وحيدًا هنا في هذه المدينة، هيَّا بنا لنَعُد إلى المنزل».

ابتسم يونس ولم يعقب على كلامه وسارا عائِدَيْن إلى المنزل، لم ينطق أحدهما بكلمة طوال الطريق حتى وصلا إلى البيت، دلف كلٌّ منهما إلى غرفته، ولكن النوم كان قد جافى عينَي يونس، فلم يستطع النوم وظل في سريره يحدِّق إلى السقف حتى سمع صوت مالك واقفًا بالباب ينادي: «يونس، هل نمت؟».

ردَّ يونس على الفور: «لا يا مالك تفضل».

دخل مالك الغرفة والأرق بادٍ على وجهه، جلس بجوار يونس وسأله: «لم تستطع النوم أنت الآخر».

ليرد مالك: «لا، سلب كلامك الذي قلته النوم من عينَي».

follow on telegram: @librarytn

ثم سكت للحظات وأردف بعدها: «أرجوك، أريد منك أن تُفهّمني ماذا يحدث في الخارج، عقلي أوشك أن يصيبه الجنون من فرط التفكير».

- العالم لم ينتهِ بالخارج يا مالك، كلُّ هذه السنوات وأنتم تعيشون في وهم صنعه بنو الأشهب وأقنعوكم به.

- ما الدليل على صدق كلامك؟

ظلَّ يونس يفكر للحظات ثم نهض كأنما تذكر شيئًا، واتَّجه إلى خزانة الملابس، سأله مالك متعجبًا: «ماذا تفعل؟!».

- سأثبت لك صِدْقَ حديثي.

أخرج يونس من الخزانة ملابس الأرمد التي أتى بها، ومن جيب البنطال أخرج محفظته الجلدية، جلس أمام مالك وفضَّ محتوياتها، كان يونس من هُواة تصوير اللحظات المهمة في حياته والاحتفاظ بالصور في محفظته أينما ذهب، ظلَّ يعرض الصور على مالك صورته وهو طفل صغير يلعب في إحدى الحدائق، وصورة أخرى في متحف ما، وصورة في إحدى الرحلات برفقة أصدقائه، وصورة عائلية قديمة، وأخرى في حفل تخرجه، ثم تابع وأَخْرَج بطاقة تحقيق الشخصية وجهها إلى مالك قائلًا: «هذه صورتي وهذا اسمي».

ثم أخرج عملات ورقية كانت بحوزته، عرضها على مالك قائلًا: «هذه هي العملات التي نستخدمها خارج الجزيرة للشراء».

وظل يعرض على مالك صور المساجد والآثار المطبوعة على النقود، ومالك يتابع بوجه جامد غير مصدق ما يرى، وبعد انتهاء يونس، انفجر مالك في البكاء وصاح في جزع والدموع تنهمر من عينيه: «ما معنى هذا؟ هل كلُّ السنين التي عشتها أنا وأهلي من قبل كانت مجرد خدعة؟ هل كنا نعيش كلَّ هذه السنين في سجن كبير داخل بلدنا ونحن أصحاب الأرض الأصليون محرومون منها؟».

follow on telegram: @librarytn

ردَّ يونس في أسف قائلًا: «للأسف هذه هي الحقيقة».

- ولكن لماذا فعلوا هذا بنا، ما الذنب الذي اقترفناه؟

- الطمع يا صديقي، لم يرضَ بنو الأشهب بأن يكونوا مجرد أفراد عاديين في الجزيرة كانت أعينهم على الحكم، أرادوا التحكم في أرزاق ومصائر العباد، كأن الله اصطفاهم دون سائر البشر ليكونوا أوصياء على خلقه.

نهض مالك وقال في حزم: «يجب أن يعلم الناس بالحقيقة، يجب أن يعلم كلُّ مَنْ في المدينة أننا أصحاب الأرض الأصليون، وأن بني الأشهب وأعوانهم ما هم إلا مخادعون اغتصبوا الأرض، يجب أن يعود الحق لأصحابه».

- ولكن كيف سنقنع الناس بالحقيقة؟

- أخبرهم كما أخبرتني، في الشارع أو السوق، فأهل المدينة طيبون سيصدقونك ووقتها نستطيع الوقوف في وجه بني الأشهب.

تنهَّد يونس وقال: «لن يصدقنا أحد يا مالك، العقول التي ظلت مغيبةً كلَّ هذا الزمن ستظن أن الحقيقة ما هي إلا خدعة».

فتساءل مالك: «ماذا سنفعل إذن؟».

أطرق الاثنان يفكران، ثم صاح مالك كأنما وجد ضالته قائلًا: «الناس على دين أسيادهم، إذا استطعنا أن نجعل السادة يصدقوننا فسيصدقنا العامة من غير تفكير».

- ولكن كيف سنصل إلى السادة؟

قال مالك في ثقة: «لا تقلق، أعرف شخصًا يعمل في بيت زعيم العشيرة، سيكون هو مدخلنا إلى هناك سأتواصل معه ليرتب لنا الدخول إلى القصر».

follow on telegram: @librarytn

(9)

في الأيام التالية تابع يونس ومالك عملهما في الحقل، اتفق مالك والشخص الذي يعرفه بقصر زعيم العشيرة على تدبير دخولهما إلى القصر بعد عيد الفداء عند اجتماع الزعيم مع كبار العشيرة. وجد يونس ومالك هذه الفرصة مناسبة لعرض ما يريدانه في حضور جميع السادة آملين أن يصدقوهما.

كان يومهم يسير كالتالي، يستيقظان صباحًا ويذهبان إلى الحقل، يقضيان وقتهما في أمور الزراعة والحصاد حتى يحين العصر يذهب مالك إلى قضاء بعض الحوائج ويبقى يونس جالسًا على شاطئ النهر، يراقب من سلبت قلبه وهي تحرك أناملها الناعمة على فتحات الناي، وتنفخ فيه كأنها تعطيه ترياق الحياة فتنساب منه النغمات العذبة التي تصيب فؤاده، كما أصابه سهم الهوى.

تكرر الأمر مرات ومرات، يجلس يتابعها تعزف غير عابئة بالنيران التي أشعلتها في صدره، لم يظفر منها سوى بنظرة تتلاقى فيها أعينهما عن طريق الخطأ مرة وتخطئه مرات، يود لو تعرف بوجوده، يودُّ أن يبوح لها

follow on telegram: @librarytn

بما يحويه قلبه، كانت جميلة كنجمة عالية صعبة المنال، وكان هو كالطفل الذي لا يملك سوى أن يراقبها من بعيد.

حتى أتته فكرة يستطيع من خلالها جذب انتباهها، تذكر عندما كان صغيرًا وهو يلعب مع أطفال الحي بالطائرات الورقية. كان يونس ماهرًا في صنعها فأحضر عيدانًا من الخشب وورقًا وحبلًا طويلًا وعكف طوال الليل على صنع واحدة، وفي منتصف الطائرة وعند منطقة تلاقي العيدان كتب ورقة صغيرة وعلقها بها.

في اليوم التالي أنهى عمله في الحقل، وجلس عند ضفة النهر ينتظر ظهورها تأخرت عن موعدها اليومي، ولكن في النهاية أتت فاتنةً كعادتها ترتدي فستانًا زيتيَّ اللون كلون عينيها وتعقد شعرها كأنه تاج، جلست في موضعها المعتاد على الضفة الأخرى من النهر ورفعت الناي إلى ثغرها وبدأت في العزف، كان يونس قد أمضى ليلته في صراعٍ بين أن يحاول التحدث معها وألَّا يضيع الفرصة من يده، وبين التراجع لأنها أميرة وما هو إلا غريب من خارج الجزيرة، لكنه في النهاية استجمع شجاعته وقال: «فأحاول الآن حتى لا يأتي عليَّ وقت في المستقبل أندم فيه وأقول يا ليتني كنت أكثر جرأة ولم أَخَفْ من المحاولة».

أرخى يونس حبل الطائرة، وتركه للريح وظل يشده ويرخيه حتى ارتفعت الطائرة في الأفق، رأتها لين فأصابها الخوف في البداية، ظنت أنه جان أو عفريت يحوم في السماء، لكنها لمحت طرفَ الحبل الموصول بها وتتبعته حتى رأت طرفه الآخر في يد يونس على الضفة الأخرى، أشار إليها يونس بيده علامة التحية فتحوَّلت ملامحها من الخوف إلى الدهشة، عيناها لا تصدقان ما تريان كالطفل الصغير الذي يرى لعبة لأول مرة، ظل يحرك الطائرة وعيناها تتبعانها بدهشة وبمهارة، وجَّه يونس الطائرة إلى شجرة قريبة من لين لتعلق بها فاقتربت من الطائرة، ونظرت إلى يونس فأشار

follow on telegram: @librarytn

إلى الرسالة المعلقة بالطائرة، أمسكت الورقة وفتحتها وجدت مكتوبًا فيها: «مرحبًا، أنا اسمي يونس، اعذريني على تطفلي، لكنني أردت التعرف إليك أكثر».

احمرَّ وجه الفتاة خجلًا وانصرفت مسرعة، ظنَّ يونس أنها لم تتقبله فاتشح بعباءة الحزن وهمَّ بالانصراف يجرُّ خيبةَ الأمل وعند انصرافه وجدها عائدة مسرعة، وجلست على الشاطئ ممسكة بيدها ورقة وقلم، وكتبت شيئًا ما وطوت الورقة وعلقتها بالطائرة وفكت قيد الطائرة من الشجرة فسحبها يونس حتى عادت إليه، التقط الرسالة وفتحها فوجد مكتوبًا فيها: «وأنا اسمي لين، ما هذا الشيء العجيب الذي معك؟».

كانت هذه هي بداية الحديث بين يونس ولين واستمرا بتبادل الرسائل بهذه الطريقة لأيام يذهب إلى الحقل في الصباح، يظل يعمل برفقة مالك لساعات، تحضر هي وتظل تعزف حتى ينهي عمله ويبدآن في تبادل الرسائل لساعات حتى تغيب الشمس، فيعود كلٌّ منهما لمنزله، استمرَّ الوضع هكذا حتى نهاية الأسبوع، في ذلك اليوم عاد يونس ووجد مالكًا يخرج من حقيبته القماشية كيسًا من النقود يحتوي على عشر عملات برونزية طُبع على أحد وجهيها صورة العم عياش، وعلى الوجه الآخر كُتب «يعيش بنو الأشهب».

سأل يونس: «ما هذه النقود؟».

فردَّ عليه مالك: «هذا نصيبك من الأرباح، لقد عملنا بِجدٍّ ولا يصح أن آكلَ عليك حقك».

رفض يونس في البداية، لكن مالك أصرَّ فقبلهم يونس، ظل يونس طوال الليل يفكر فيما سيفعله بهذه النقود حتى أتته فكرة، وفي الصباح سبق مالك إلى الحقل كان قد ألف طرق المدينة وحاراتها فذهب إلى السوق وقصد متجرًا للحُلِي اشترى منه عقدًا من الفضة تتدلى منه قطعة مصنوعة

follow on telegram: @librarytn

على هيئة بجعة، كلَّفه العقد معظم ما أعطاه له مالك من عملات لكنه لم يعبأ بالتكلفة.

أنهى عمله سريعًا في الحقل، وجلس يفكر كيف سيعطي لين القلادة ولم يدرِ بنفسه إلا وهو يخلع قميصه ويقفز في النهر سابحًا في مياه عشقه حتى عبر للناحية المقابلة حيث جلس ينتظرها في موضع جلوسها، كانت قد تأخرت قليلًا ذلك اليوم، ولكنها في النهاية أتت، تفاجأت عندما رأته أمامها فابتسم يونس عندما وجدها أمامه، لم يعرف ماذا يقول فقد هربت الكلمات من على لسانه، فقال في تلعثم: «مرحبًا يا لين، تبدين أجمل عن قرب».

ابتسمت لين في خجل ظهر جليًّا على وجهها الذي تدفق الدم فيه ليكسوه حمرة زادتها جمالًا فوق جمالها، وقالت: «مرحبًا يا يونس كيف وصلت إلى هنا؟!».

أخرج يونس من جيبه كيسًا مخمليًّا، ومدَّ يده به قائلًا: «سبحت عبر النهر، لم أجد وسيلةً أخرى لأعطيك هذا».

مدت يدها وأخذته متسائلة: «ما هذا؟».

- عندما رأيته قلت في نفسي إنه صُنع لأجلك.

فتحت الكيس وأخرجت منه القلادة، ظلت تحدق بها لثوانٍ حتى ظنَّ يونس أنها لم تعجبها، ولكن سرعان ما تبخرت هذه الفكرة عندما وجد يونس بعض الدموع تتساقط من عينيها فسألها قلقًا: «ما الأمر، هل فعلت شيئًا ضايقك؟».

مسحت الدموع بيديها وقالت مبتسمة: «لا على الإطلاق، ولكنني لم أتوقع هذا قطُّ».

follow on telegram: @librarytn

ثم قامت بتعليق القلادة حول رقبتها وقالت: «لن أخلع هذه القلادة عن رقبتي أبدًا ما حييت».

جلسا معًا على الشاطئ يتبادلان الحديث، مرت ساعات لم يشعرا بها، لم يحتج يونس سوى هذه الجلسة ليدرك كم أنها جميلة القلب كجمال الشكل، ولم يحتج سوى هذه المقابلة ليدرك كم أنه هامَ بها حبًّا.

تكرر اللقاء بالطريقة نفسها وفي الموعد نفسه لأيام تعارفا فيها أكثر، وازداد تعلق بعضهما لبعضٍ، وجد فيها العزاء عن كلّ ما رآه من معاناة في حياته، كانت الهبة التي عوضه الله بها بعدما عانى مرارة الفقد مرات ومرات، ووجدت هي فيه الرفيق والشريك الذي تأمن بجواره، والتي انتظرته في خيالها طويلًا بعدما كانت ترفض كلَّ مَنْ تقدم لخطبتها من وجهاء وأمراء العشيرة.

كان كلٌّ منهما قد أحبَّ الآخر لكن خاف كلاهما من البوح للآخر، كان يونس يحدث نفسه ما الذي ستحبه فيَّ، أنا مجرد أنقاض إنسان بُني عليه صرحٌ من وَهْمٍ يخدع به أنظار الجميع ليستطيع العيش بينهم في سلام، وعلى الجانب الآخر كانت لين خائفةً هي الأخرى، كانت تحدث نفسها ماذا سيحدث إذا صارحته بمشاعري ولم يكن يبادلني حينها المشاعر نفسها، سأكون حينها خسرته كشريك وكصديق، كان كلٌّ منهما يعاني ما بداخله صراعًا لا يستطيع أن يبوح به للآخر، ففضَّلا الكتمان لعل الأيام تحمل لهما وسيلةً للبوح بما في داخلهما.

وفي أحد الأيام وبعد عودتهما من الحقل أخبره مالك قائلًا: «الغد سيكون موعد اكتمال القمر، وسيُفتح الممر مرةً أخرى، إذا أردت العودة لحياتك الطبيعية فغدًا ستكون فرصتك، يمكنك أن تتوارى وسط الجموع وتعود ولن يشعر بك وقتها جنود بني الأشهب».

ليردَّ يونس في حسم: «لن أرحل حتى أخبر الزعماء بالحقيقة».

follow on telegram: @librarytn

سأله مالك في نبرةٍ شاكة: «أخبرني الحقيقة يا يونس، هل ستبقى من أجل الاجتماع بالزعماء أم من أجل فتاة العشيرة الأخرى؟».

- من أجل السببين يا مالك لا يتعارض أحدهما مع الآخر.

- هل أحببتها يا يونس؟

تنهَّد يونس ثم قال: «لا أعلم، لكن كلَّ ما أريده هو أن أبقى بجانبها قدر المستطاع لباقي عمري».

ابتسم مالك وربت على كتف يونس وقال: «طائرنا المحلق خارج السرب قد وقع في شَرَك الحب، ولكن نصيحة من أخٍ يحرص عليك حرصه على نفسه لا تعلق مصيرك بفتاة حتى لا تفقد نفسك إذا فقدتها، والآن اخلد إلى النوم فأمامنا في الغد يوم حافل».

follow on telegram: @librarytn

(10)

طق... طق... طق

استيقظ يونس على صوت طرق الباب، طمأنه مالك بأنهم الجنود ينبهونهم لبداية الاستعداد ليوم الاحتفال. المدينة السفلية تزينت في أبهى حللها على الرغم من فقر أغلبها لاستقبال المخلصين، الساحة الكبيرة رفعت فيها المنصة وأعدت المحرقة لاستقبال الفداء، رايات بني الأشهب المرسوم عليها الأسد الذهبي معلقة في كلِّ مكانٍ، وكلُّ بيتٍ من بيوت المقاطعات الخمسة قد جهز نصف مدخراته طوال الشهر من بضائع ومحاصيل ونقود ومعادن وأقمشة من أجل تقديمها كواجبٍ للامتنان. المدينة دبت فيها الحركة، العمل على قَدَمٍ وساق، الشوارع والأحياء مسحت أرضها من التراب كي لا تؤذي ذرَّاته صدور المخلصين، كلُّ القمامةِ الملقاةِ في الشوارع والمياه طوال الشهر جُمعت كي لا يؤذي مظهرها أعين المخلصين.

follow on telegram: @librarytn

توافد الجميع إلى الساحة الكبرى، وأخذ الجنود يتلون عليهم التعليمات المعهودة بتحية الموكب عند وصوله وعدم الهمس أو الكلام في أثناء خطاب العم عياش.

في البداية هبط موكب تيم ابن العم عياش وحاكم المدينة السفلية من قلعته على الجبل المواجه لساحة الاحتفال في موكبٍ عظيم وسط حاشيته وجنوده، واستوى على أحد الكراسي الثلاثة الذهبية على المنصة، وقبل وصول تيم، أتى زعماء العشائر في مواكب صغيرة وجلس كلٌّ منهم على كرسيٍّ في مقدمة عشيرته.

لم يفهم يونس السعادة على وجه بعض الناس، كيف يسلمون أقوات يومهم وأرزاق عيالهم ويكونون بهذه السعادة والتقبل؟! ما أغربها طبيعة البشر عندما يتوقفون عن إعمال عقولهم يقنعون أنفسهم بالأكاذيب مخافة أن يصطدموا بمرارة الحقيقة!

الكلُّ مجتمعٌ في ساحة الفداء، رآها جالسة خلف أبيها زعيم العشيرة، نعم إنها لين درة الفؤاد، وكان يجلس بجانبها شاب شديد الشبه بلين، استنتج أنه أخوها التوءم إياد، كانت قد أخبرت يونس عنه من قبل، ظل يتأملها كعادته، كان يراها ولكنها لم تستطع رؤيته بسبب الزحام الشديد حتى لكزه مالك في ذراعه للانتباه، بدأت الأحجار في السقف في تحول لونها من الأزرق إلى الأصفر، فهم يونس حينها أن ضوء السقف عكس ضوء الخارج فعندما يكون بالخارج ليل تتحول الأحجار إلى اللون الأصفر الذهبي لتعطي أهل المدينة السفلية إحساسًا بالنهار، وعندما يكون بالخارج نهار يتحول لونها للأزرق القاتم لتعطيهم إحساسًا بالليل.

وما هي إلا دقائق حتى انشقَّ الجدار وظهر منه العم عياش ومن خلفه من بني الأشهب والجنود حاملين المشاعل، وبعدهم الأرمد جارين عربات تحمل تماثيل الوحوش المزيفة، تعالى التهليل والترحيب من أهل المدينة

follow on telegram: @librarytn

السفلية، ونزل تيم عن المنصة واستقبل أباه وأخاه، ثم صعد العم عياش إلى المنصة وجلس على العرش وألقى خطبته وبدأ الاحتفال كالمرة السابقة، لم يكن هناك اختلافٌ سوى أن يونس هذه المرة كان في صفوف أهل المدينة السفلية وليس الأرمد، كان يونس يشاهد الاحتفال حتى رأى زين يحمل أحد التماثيل برفقة ثلاثة آخرين ويتوجه بها إلى المحرقة، أراد يونس أن ينبهه لوجوده.

ظل يتابعه بعينيه طوال الاحتفال حتى انتهى وأشار العم عياش بالتوجه إلى جمع واجب الامتنان، حينها همس يونس لمالك بشيء فنظر إليه مالك بعدم فهم، فهمس له يونس: «ثِق بي وافعل ما أخبرك به».

توجَّه مالك ناحية الأرمد مستغلًّا الزحام الناتج عن عودة الأهالي لمنازلهم، وارتطم بزين عمدًا فهمس له قائلًا: «اذهب إلى المقاطعة الثانية في الحارة المؤدية إلى السوق، يونس ينتظرك هناك وتأكد أن لا أحد يتبعك».

لم يصدق زين ما يسمعه، تهللت أساريره وكاد أن يتكلم لولا أن مالك لم يمهله وانصرف قبل أن يلحظه أحد ليذوب وسط الزحام. استطاع زين بعد أن احتال على الجنود أن يذهب إلى المقاطعة الثانية، مرَّ على بعض المنازل ليأخذ منهم واجب الامتنان حتى لا يشك فيه الجنود، ومن ثمَّ توجه إلى الحارة المؤدية إلى السوق، وجد مالك يقف أمام منزل قديم، راقب مالك الطريق جيدًا ليتأكد من أنَّ لا أحد يتبعه، ومن ثمَّ دعاه إلى الدخول وفي ساحة المنزل كان يقف يونس. اندفع زين إلى يونس وعانقه بلهفة وقال بنبرته الساخرة المعتادة: «يبدو أنك أصلب مما اعتقدت يا طبيب، كنت أعتقد أنك لن تستطيع أن تمضي ساعات في المدينة السفلية قبل أن تُقتَل».

follow on telegram: @librarytn

ليردَّ يونس باسمًا: «يبدو أن حتى باطن الأرض لم يقبلني كما رفضني سطحها».

حكى يونس لزين ما حدث له منذ أن فقده وحتى هذه اللحظة فقال زين معقبًا: «لقد كُتب لك عمرٌ جديد أيها الطبيب، من حسن حظك أنك قابلت في طريقك شابًّا صالحًا مثل مالك».

«يونس نِعْم الأخ والصديق».. قالها مالك وهو يضع أمامهما كوبين من مشروب ما، ومن ثمَّ اتخذ مجلسه بجانبهما، تابع زين كلامه: «بعد اختفائك قلب بنو الأشهب الجزيرة رأسًا على عقب بحثًا عنك، لم يتركوا مكانًا إلا وفتشوا عنك فيه حتى وجدوا ملابسك وآثار أقدامك بالقرب من الشاطئ فظنوا أنك هربت من الجزيرة، هيا استعد لنَعُد إذا اعتذرت للعم عياش فسيعفو عنك».

قال يونس في نبرة جادة: «أنا لن أعودَ الآن يا زين».

- لكن وما السبب؟

- لقد عزمت على أن أكشف لأهل المدينة حقيقة ما يحدث في الخارج وظلم بني الأشهب لهم ولكم.

كان للكلمات وقع الصاعقة على أذن زين، فقال: «هذا جنون، بل هذا انتحار لن يصدقك أحد، وستشعل نار الحرب في الجزيرة من جديد».

- لا أستطيع أن أعيش، وأنا أرى أصحاب الحق يعيشون في ذل وهوان وسارقوهم يتمتعون في خيرات أرضهم، سأخبرهم حتى يرتاح ضميري وسيكون لهم حرية الاختيار.

- بنو الأشهب لهم أعين في كلِّ مجلسٍ وكلِّ بيتٍ، يعرفون ما يدور بين الرجل وزوجته، هل تظن أنهم سيتركونك تسلب ما استولوا عليه لعقود دون أن يبدوا ردَّ فعل، هل سيتركك جنودهم تنتزع الأرض

follow on telegram: @librarytn

من تحت أقدامهم دون أن يتحركوا! أنت تحلم يا طبيب، سيغرقون الأرض بالدماء قبل أن يتخلوا عن قطعة ذهب واحدة، هذه الأرض عاشت على نظام هم من صنعوه ولن يسمحوا بتغييره أبدًا.

قال يونس في انفعال: «أخبرني يا زين، هل أنت راضٍ بالعيش وأنت تضرب وتهان كلَّ يومٍ من بني الأشهب وأعوانهم دون ذنب من أجل لقمة تسد بها جوعك؟».

تدخل مالك وقال: «إذا لم يتحرك الناس من أجل أرضهم وحقوقهم التي اغتصبت الآن، فلن يتحرك شيء حتى يوم القيامة».

صمت زين للحظات يفكر حتى قال: «ما الذي تنويان فعله؟».

ردَّ يونس قائلًا: «سيدخلنا صديق لمالك قصر زعيم العشيرة على هيئة خدم في اجتماع سادة العشيرة وحينها سأخبرهم بالحقيقة، وسأحاول إقناعهم بها لعلهم يستجيبون لي».

- وما الذي تريد أن أفعله؟

- أريدك أن تُعرِّف الأرمد بحقوقهم، ولا يقبلوا بأن يكونوا عبيدًا لبني الأشهب، عرِّفهم بحقوقهم وأنهم جميعًا بشر، فلا مبرر لأن يتحملوا الذل منهم، وأريد أن تنقل لي الأخبار إذا جدَّ جديد فوق سطح الجزيرة.

- حسنًا يا طبيب، لا أملك سوى الإنصات لك.

- أراك بعد شهر يا صديقي.

ودَّعهما زين وخرج من المنزل بعدما تأكد مالك أن الشارع خالٍ من المارة، توجه زين إلى الجندي المسؤول عن الحي، يجرُّ إحدى قدميه ويتكئ على عصا، وقف أمام الجندي وقال مصطنعًا الألم: «سيدي، في

follow on telegram: @librarytn

أثناء جمعي للواجب سقطت على قدمي في إحدى الحارات، والتوى كاحلي ولم أستطع إكمال العمل».

ليردَّ عليه الجندي في صرامة، وبوجه يخلو من تعابيرَ كالحجر: «عد إلى المعسكر وأرسل أحد رفاقك لاستكمال العمل».

كانت هذه هي حيلة زين كي لا يشك فيه أحد، عاد إلى المعسكر حتى انقضى اليوم وعادوا إلى المدينة العلوية بعدما جمع رفاقه ثمرة جهد فلاحي وعمال المدينة السفلية لمدة شهر، عبر بنو الأشهب وأتباعهم الممر وأغلق من بعدهم لينتهي يوم احتفال آخر.

***

في اليوم التالي أخبره مالك أن صديقه قد أعد لدخولهم قصر الزعيم في اليوم التالي، يومها قابل يونس لين بعد انتهاء عمله في الحقل، كان يونس جالسًا على شاطئ النهر شارد الذهن ينظر إلى الماء الجاري بغير تركيز، وعقله يضج بما فيه من أفكار وهموم، قالت لين قاطعة تفكيره: «فيمَ الشرود؟».

تنهَّد وقال: «حملٌ أثقل قلبي وضجَّ به عقلي».

حدثني عنه، لعلَّ يكون في حديثنا جلاء لهمك.

نظر إليها يونس فتلاقت أعينهما، أحسَّ بدفء يسري في جسده، وكم من راحة يشعر بها عند رؤيته لها! استجمع شجاعته، وقال: «لين، أريد أن أخبرك بأمرين».

ردَّت لين والقلق بدأ يظهر على وجهها: «وما هما؟».

- الأول، أنِّي أحبك يا لين، ولم أحب أحدًا في العالم كله مثلك، لست أدري ما هي مشاعرك نحوي ولكني لم أكن لأغفر لنفسي لو لم أبُح...

follow on telegram: @librarytn

قاطعته لين بعدما تورد وجهها بحمرة الخجل، وأبعدت عينيها في كسوف، وابتسمت في خجل، قائلة: «ليس هناك داعٍ للندم، لست وحدك من يمتلك قلبًا».

تهلَّلت أسارير يونس كأن الكون بأسره لا يتسع لفرحته، وقال ليتأكد: «أأفهم من هذا أنك أيضًا تحبينني؟».

ازداد خجلها وقالت: «عهدتك لمَّاحًا تفهم معنى الكلام».

ازدادت سعادته أضعافًا، كان يشعر أنه يحلم، لم يكن يصدق ما يحدث، من هو أسعد حظًّا منه الآن بعدما اختاره قلبها من بين باقي الرجال، تابعت لين قائلة: «حسنًا، وما الأمر الثاني؟».

تحولت ملامحه من السعادة إلى القلق مرة أخرى وقال: «ربما تحسبينني مجنونًا، لكنني أقسم إن ما أقوله هو الحقيقة، أنا لست من هذه الجزيرة، أنا طبيب وأتيت من بلد آخر، العالم في الخارج لم ينتهِ، بنو الأشهب اختلقوا كلَّ هذا لينهبوا ثروات الجزيرة ويحكموا سيطرتهم عليها».

تجمدت ملامح لين واصفرَّ وجهها واغرورقت عيناها بالدموع، نظر يونس إلى عينيها وقال في استجداء: «أرجوك يا لين قولي شيئًا، أعلم أنك ستظنين أنني مجنون أو أن عقلي قد طار أو أنني كاذب لكنني أقسم...».

- أنا أصدقك.

قالتها بثبات غريب لا يليق بملاح الخوف والهلع التي كانت عليها منذ ثوانٍ، والتي تبدلت في الحال إلى قوة وثبات.

- تصدقينني! هكذا بغير دليل؟

- لقد صدقتك في حبك لي، فلن أكذبك في شيء آخر.

أراحت كلماتها قلب يونس، للمرة الأولى يشعر بأنه أخيرًا وجد من تستطيع أن تسكن لها نفسه، تابع حديثه وأخبرها عن كلِّ شيءٍ فوق

follow on telegram: @librarytn

الجزيرة، وخداع بني الأشهب لهم طوال هذه السنين والوحوش المزيفة وكلِّ شيءٍ، فقالت وما زالت الصدمة على وجهها: «كانوا يخدعوننا كلَّ هذه السنين ونحن في غفلة، يجب أن يعرف الجميع بالحقيقة، يجب أن تعود أرضنا لنا».

قال يونس: «لقد عزمت على إخبار أهل المدينة بالحقيقة، لن يرتاح ضميري وأنا أرى الجميع مغيبين ويُنهبون من بني الأشهب وهم لا يعلمون، ولكن أخشى ألَّا يصدقونني، وأن يتهموني بالجنون، فماذا سأفعل حينها؟».

- أهل المدينة أناس طيبون حتى وإن كذبك بعضهم، فعلى الأقل ستكون قد أسهمت في رفع الغشاوة عن أعينهم ولو قليلًا، أهل المدينة قانعون ما دام يأتيهم قوت يومهم، قم بتنبيههم، عرِّفهم حقوقهم وأنهم يستحقون أكثر من كسرات الخبر، في عُرفٍ نكون أصحاب الحقل ويلقون لنا بثمرة واحدة؟!
- سأدخل غدًا إلى قصر زعيم عشيرة المقاطعة الثانية وسأخبره وباقي السادة بالحقيقة، فإذا صدقوني لن يعارض الباقون.
- جيد وأنا من ناحيتي سأخبر أبي بالأمر لعل كلامك يلقي التصديق في مقاطعتنا.

follow on telegram: @librarytn

(11)

في هذا اليوم خرج يونس ومالك من البيت، ولكن لم يتوجها إلى الحقل كعادتهما، بل اتجها ناحية السوق عابرينها إلى الجهة الأخرى من المقاطعة إلى منازل السادة، حيث اجتمع سادة العشيرة في بيت زعيمها الذي كان يُدعى بكر، لم يكن بكر يتمتع بشعبية كبيرة في المقاطعة حسب كلام مالك.

فعلى الرغم من أنه سيد العشيرة وزعيمها فإن علاقته بباقي العشيرة تكاد تكون منعدمة، لا يرونه إلا في الاحتفالات كممثل عنهم، غير ذلك فلم يكن له تأثير يُذكر على مصالح العشيرة، ولكنه كان على الرغم من كلِّ شيءٍ فما زال الزعيم إذا صدَّق يونس فسيصدقه الباقون.

تابع يونس ومالك سيرهما داخل منطقة السادة، كانت منازلهم تشبه قصور أهل الخاصة في المدينة العلوية، شوارع نظيفة إلى حدٍّ ما وممهدة، على عكس طرقات باقي العشيرة، وصلا إلى بيت الشيخ بكر، كان قصرًا مرتفعًا عمَّا حوله من القصور، اتجها إلى الباب الخلفي، كانت هناك فتاة بانتظارهم، فتاة متوسطة الطول وشعر أشقر منسدل على كتفها ووجهها وديع طفولي قادتهم إلى داخل القصر وأعطت كلَّ واحدٍ منهما زيًّا كزي

follow on telegram: @librarytn

الخدم وقالت: «لقد أوصلتكما إلى داخل القصر كما طلبت يا مالك، فاحذرا ولا تلفتا لكما الأنظار حتى لا تسببا لي ولكما المتاعب».

ردَّ عليها مالك في ودٍّ: «شكرًا يا صفية، لن أنسى لكِ هذا أبدًا».

فقالت في حنو: «كلُّ شيءٍ هيِّن من أجلك».

وانصرفت حتى لا يلحظها أحد، ارتدى الاثنان ملابس الخدم، سأل يونس مالك: «من هذه الفتاة؟».

- جارتي ونعرف بعضنا منذ الصغر، وكنت سأخطبها قريبًا.

ابتسم يونس وقال: «لم تخبرني عنها من قبل».

ابتسم مالك الذي كان خجولًا وقال: «لم تأتِ فرصة فقط».

ارتدى كلٌّ منهما ملابس الخدم، وسلكا ممرًا داخليًّا في القصر، كان يؤدي في نهايته إلى المطبخ الذي كان مكتظًّا بالخدم والطباخين، فكان سهلًا عليهما أن يذوبا بينهم.

«ما الذي تفعلاه هنا؟» أتى الصوت الصارم من خلفهما، جعل الدماء تتجمد في عروقهما، التفتا فوجدا رجلًا قصير القامة، وبدين الجسد يرتدي ملابس تشبه ملابسهما، ولكن بقبعة حمراء كبيرة استنتجا أنه كبير الخدم.

- أنتما تقفان هنا دون عمل، والسادة لا يجدون من يقدم لهم الشراب.

تنفَّسا الصعداء، ظنًّا أن أمرهما قد كشف، وقال مالك الذي استجمع الكلمات التي كانت قد هربت من المفاجأة: «نحن نعتذر يا سيدي، سنعود للعمل على الفور».

- احملا كؤوس الشراب، وتوجها على الفور إلى البهو الرئيسي.

والتفت وهو يلقي بالسُّباب إلى كلِّ مَنْ يمت للخدم بصلة، حملا الكؤوس وتوجها عبر ممرات القصر إلى البهو المتسع حيث كان يجلس السادة.

follow on telegram: @librarytn

ساحة كبيرة مفروشة بوسائد مريحة، وفي صدر البهو كان يجلس زعيم العشيرة وعلى جانبيه السادة الذين يبدو عليهم النعيم الذي حرموا منه باقي أفراد العشيرة، وأمامهم أصناف الطعام والشراب الذي لم يره سوى في منازل بني الأشهب وأعوانهم. كان السادة منهمكين في اللعب واللهو، فتقدم يونس إلى مجلسهم ووضع الكؤوس ولم ينصرف، حدَّق به الجميع في تعجب وتطلع فيه الشيخ بكر الذي كان رجلًا قصير القامة بدينًا ذا بشرة مائلة للسمار ولحية رمادية طويلة، وكان الصَّلع قد بدأ يزحف على مقدمة رأسه، فكشف عن جبهة عريضة، نظر إليه الشيخ وقال متعجبًا: «لمَ تقف هكذا أيها الخادم؟».

ليرد عليه يونس بصوت قوي: «أنا لست بخادم يا سيدي، لقد جئت إليك بأمر خطير، فأرجو أن يتسعَ صدرك لكي تسمعني».

- تكلَّم، ما الذي تريده؟

- أنا لست من أهل المدينة، أنا من الخارج.

قال الشيخ بكر متعجبًا: «أنت من بني الأشهب؟! ما الذي أبقاك حتى أُغلقَ الممر؟».

- لا، لست من بني الأشهب ولا حتى من أهل الجزيرة، لقد أتيت من الخارج، العالم لم ينتهِ في الخارج، بنو الأشهب يخدعونكم كلَّ هذه السنوات.

ساد الصمت لثوانٍ مرت على يونس كأنها دهر، وفجأة انفجر الجميع ضاحكين حتى اغرورقت أعينهم وآلمتهم بطونهم من شدة الضحك، حتى إن بعض السادة لم يتمالكوا أنفسهم فأسقطوا كؤوس الشراب من أيديهم، كان الجميع يضحكون إلا الشاب الجالس بجوار الشيخ بكر، ابنه وولي عهده لم يكن يضحك. ظلَّ يونس يحدِّق إليهم لا يفهم لمَ يضحكون، فسأل الشيخ بكر قائلًا: «ما الذي يُضحككم يا سيدي، هذه هي الحقيقة».

follow on telegram: @librarytn

ظلت الكلمات تهرب من على لسان الشيخ بكر من شدة الضحك، ثم التقط أنفاسه وأمسك الدموع من عينيه وقال: «أنا لم أضحك هكذا منذ سنوات، أنت أيها الخادم مهرج بارع، لا بُدَّ أن أجعلك مهرج القصر».

ليردَّ يونس في جدية قائلًا: «هذه ليست مزحة، وأنا لست بمهرج، ما أقوله هو الحقيقة، أنتم تعيشون في خدعة لقرون، العالم لم ينتهِ، بنو الأشهب كانوا يخدعونكم كلَّ هذه السنوات لكي ينهبوا خيرات أرضكم، الشمس بالخارج ساطعة ولم تأفل، ولا وجود لوحوش هذه تماثيل صنعوها ليحبكوا بها خدعتهم».

تبدَّد الضحك من المجلس وساد بدلًا منه الوجوم على وجوه الجميع، وتبدلت ملامح الشيخ بكر من الضحك إلى الغضب وقال: «اسمع يا هذا، لا يجرؤ أحد على إهانة بني الأشهب في مجلسي، إذا لم تكن مهرجًا فأنت إما أن تكون أكثرت من شرب الخمر حتى أعماك فلم تعد تدري ما تقول، وإما أنك مجنون جاء إلى هنا ليسخر منَّا، وأنا لا أقبل وجود الاثنين في قصري».

ثم وقف وصاح: «يا حراس، ألقوا هذا المجنون خارج القصر».

- أعطوني فرصة لـــ....

لم يمهل الحراس يونس لإنهاء كلامه وصاح به الشيخ بكر: «وإذا لم تعد لرشدك وتفوهت بهذا الحديث مرةً أخرى، فسألقي بك في السجن حتى تتعفن لباقي عمرك».

كان الشيخ بكر يظن أن ما فعله كافٍ لإنهاء قصة يونس إلى الأبد، ولكن ما حدث في القصر انتشر كالنار في الهشيم، كلُّ مَن كان في البهو تناقل القصة، السادة والخدم والحرس، الكلُّ يتحدث سواء بالتندر أم التساؤل عن صحة الحديث أم عدم التصديق عن الفتى الذي يزعم بأن العالم لم ينتهِ بالخارج، وما هي إلا ساعات حتى تناقل الحديث على كلِّ لسانٍ في

follow on telegram: @librarytn

المقاطعة وانتقل بين المقاطعات فأصبح هو الشغل الشاغل للجميع في المدينة السفلية بأسرها.

وفي المقاطعة الثالثة كانت لين جالسة في قصرها بصحبة والدها وأخيها إياد، كان والد لين رجلًا صالحًا، ولكنه صعب الإقناع، قالت لين: «بلغني من الخادمات عن قصة ذاك الشاب في المقاطعة الثانية الذي يزعم أن العالم لم ينتهِ بالخارج».

ليردَّ إياد: «سمعت أنا الآخر عنه، يقول إن بني الأشهب يخدعوننا كلَّ هذه السنين».

ليقول أبوهما: «لقد عشنا كلَّ هذه السنين تحت حكم بني الأشهب لن نغير نظام الجزيرة من أجل ادِّعاءٍ لا نعلم صحته».

قالت لين: «أنا أصدقه، لم يرَ أحد ما يخبرنا به بنو الأشهب، ولم نرَ خيرًا تحت حكمهم قطُّ».

ليعقب إياد على كلامها: «ولمَ يحكموننا من الأساس، هذه الأرض ليست أرضهم، فلمَ لا يحكمها أصحابها بعيدًا عن وصاية أحد».

ليردَّ عليهما أبوهما منفعلًا: «هذه الأرض عندما تركت لأهلها ليحكموها، أشعلوا فيها الحروب وكادوا يفنون بعضهم، فحتى إذا كان بنو الأشهب يخدعوننا، وحتى إذا لم ينتهِ العالم، فالعيش مظلومين في سلام خير من أن نعيش أحرارًا في حروب، ولا أريد أن أسمع منكما هذا الكلام مرة أخرى».

وهمَّ بالانصراف تاركًا الغرفة، اقتربت لين من أخيها وقالت: «هل سنترك بلادنا لبني الأشهب؟».

- لا يهمني إذا كان العالم في الخارج قد انتهى أم لا، ما يهمني هو حال هذه المدينة وأهلها التي يسلب منهم بنو الأشهب قوت يومهم.

- وماذا سنفعل؟

follow on telegram: @librarytn

- الأمر ليس بالسهل، حتى وإن كان هناك ناقمون على حكم بني الأشهب، فالأغلب ما زالوا يؤيدونهم، واجبنا الآن أن نعرِّفَ الناس بحقوقهم المنهوبة، وألَّا يتركوا بني الأشهب يأخذون خيرات أرضهم ويلقون لهم الفتات.

***

في هذا الوقت كانت الأنباء قد وصلت إلى قصر تيم وباقي أمراء بني الأشهب في المدينة السفلية، وفي إحدى غرف قصر تيم اجتمع هو وحاشيته من بني الأشهب.

قال تيم محدثًا الأمراء: «لقد بلغني من أعيننا أن الناس يتحدثون في المدينة عن الشاب الذي يَدَّعي أنه أتى من خارج الجزيرة ويخبرهم بأن العالم لم ينتهِ، وأننا نخدعهم وأن الناس يتحدثون في المقاطعات الخمسة عن مدى صدق كلامه».

علت الهمهمات بين الأمراء فاردف تيم في غضب: «كيف استطاع هذا الشخص أن يصل إلى هذه المعلومات، هل تدركون ماذا سيكون موقفنا إذا علم أبي بالأمر؟».

ردَّ أحد الأمراء: «من المستحيل أن يغادر أحد من المدينة السفلية إلى الأعلى وقت الاحتفال، فالحراس لا يتركون الممر حتى يغلق».

ليردَّ عليه أمير آخر: «إذن بالتأكيد أن أحد سكان المدينة العلوية هرب إلى هنا بعدما توارى بين الجموع في أثناء الاحتفال ولم يشعر به الجنود».

فسألهم تيم: «وما العمل الآن؟ لن نتركه ينشر حديثه بين الناس دون أن نتحرك حتى لا يقلب الناس علينا ونجد أنفسنا أمام ثورة منهم».

فاقترح أحد الأمراء: «فلنلقِ القبض عليه ونقتله لتدفن معه حكايته إلى الأبد».

follow on telegram: @librarytn

- لئن قتلناه الآن دون جرم، سيتساءل الناس عن السبب وسنكون بهذا نثبت للناس أن ما قاله صحيح.

حينها قام أمير يُدعى «سامر» كان هو مساعد تيم في إدارة المدينة السفلية وذراعه اليمنى، كان رجلًا تجاوز الخمسين من عمره، طويل القامة، نحيل الجسد، ذا عينين متربصتين وثغرًا نادرًا ما يبتسم، وكان معروفًا بذكائه الشديد ودهائه، لذلك عيَّنه العم عياش مساعدًا لابنه، قال سامر مخاطبًا الجمع أمامه: «إذا لم نستطع القضاء عليه فلنقضِ على احتمالية إيمان الناس به، لننشر بين العوام الساخرين والمكذبين لما يقول لنتهمه بالجنون أو السعي إلى المال، لنخبر الناس أنه يهدد أمنهم، ويريد أن يشعل نيران الفتنة من جديد».

فسأله تيم: «وهل سيصدق الناس؟».

قال سامر في ثقة: «سيدي، الأمة التي عاشت مخدوعة كلَّ هذه السنوات ستظن أن الحقيقة فخٌّ يهدد حياتها، فلنطارده في كلِّ مكانٍ حتى تلفظه كلُّ البيوتِ، حينها لن يجد ملجأ سوى أن يسلمنا نفسه، أو أن ينتحر وسنكون نحن الرابحين في كلتا الحالتين».

هزَّ تيم رأسه بعدما اقتنع بكلام سامر، وأمَّن على كلامه الحضور فأمر بنشر الدخلاء والجواسيس بين الناس على الفور حتى لا يجد يونس مصدقًا لما يقوله.

***

وفي ساحة السوق وقف يونس ومالك، نادى يونس في الناس بأعلى صوته فتجمع حوله بعض الناس وقال: «يا أيها الناس، اسمعوا كلامي، ما أنا إلا ناصح لكم، بنو الأشهب يخدعونكم ويسرقون حقوقكم وينهبون أقواتكم، عملوا على خداعكم وتغييب عقولكم لسنوات حتى يفرضوا

follow on telegram: @librarytn

سيطرتهم عليكم ويسلبوا منكم أرضكم، حرموكم من كلِّ شيءٍ، حتى ضوء الشمس أقنعوكم بأنها أفلت وجعلوها حكرًا على أنفسهم فقط».

زاد تجمع الناس حول يونس، وكان من ضمن الذين تجمعوا حوله أحد دخلاء بني الأشهب الذين زرعوه بين الناس، فقال هذا الرجل: «وما دليلك حتى نصدِّقَ أن ما تقوله هو الحقيقة؟».

- انظروا ما معي.

أخرج محفظته وعرض محتوياتها عليهم كما عرضها على مالك، أخذ يريهم الصور والعملات، اندهش الناس لما رأوا، أحسَّ الرجل أن الناس سيصدقون يونس فاستدرك الأمر سريعًا وقال: «انظروا أيها القوم، يريد أن يخدعنا ببعض الرسومات، يظننا حمقى أو أطفالًا صغارًا يسهل خداعهم».

ردَّ يونس مدافعًا عن نفسه: «لماذا أخدعكم، وما النفع الذي سيعود عليَّ أن فعلت، كلُّ ما أريده أن تعرفوا الحقيقة فقط، أريد أن تعود الحقوق لأصحابها».

تقدم الرجل حتى وقف بجانب يونس وقال مخاطبًا الناس: «يا أهل المدينة، لا تتركوا هذا المعتوه يضللكم بأوهامه، هل سينفعكم إذا خلَّى بنو الأشهب بينكم وبين الوحوش».

- صدقوني يا قوم، العالم لم ينتهِ، كلُّ شيءٍ في الخارج طبيعيٌّ، الشمس كما هي، والليل والنهار يتعاقبان منذ خلقهما الله، لا وجود للوحوش، هي مجرد تماثيل صنعوها لكي يخدعوكم، العالم بالخارج سار وتقدم، والجزيرة ما زالت منعزلة وفي جمود بفضل بني الأشهب كي لا ينازعهم أحد السلطة.

ليعود الرجل ويصيح: «انظروا ها هو ذا يعود ويقول قصصه الحمقاء مرةً أخرى، صدقوني لن ينفعكم إذا أصاب الظلام أعينكم بالعمى، نحن لسنا كبني الأشهب، هم أناس ميَّزهم الله كي يحمونا، فهل يكون جزاؤهم

follow on telegram: @librarytn

الجحود والعصيان! هذا المجنون لا يريد سوى إشعال الفتنة ليستفع هو منها لا تتركوه ينشر ضلاله ولا تطيعوه، فتندموا بعد فوات الأوان».

وانحنى وحمل حجرًا في يده وأشار إلى يونس في غضب وقال: «لا تتركوا داعيَ الفتنة ينشر سمومه بينكم».

وألقى يونس بالحجر فتبعه عدد من الناس وظلوا يقذفون يونس بالسُباب والشتائم، فهرب منهم يونس ومالك إلى أحد الشوارع، أسند ظهره إلى الحائط وهربت من مقلتيه بعض الدموع حزنًا على حاله، لا يعلم لمَ يفعل كلّ هذا سوى إحساس داخلي يجبره على هذا الأمر ودافع داخلي بالشفقة والمسؤولية تجاه هؤلاء الناس الذين تُسلب حقوقهم وهم راضون، بل ومدافعون عن سارقيهم.

«لا تبكِ يا عم، أنا أصدقك» كانت هذه كلمات طفل في السادسة من العمر، رأى يونس يبكي فاقترب منه وربت على كتفه في حنان، كانت كلمة الطفل دافعًا ليونس ليكمل ما بدأه، استمر في مخاطبة الناس رفضه الكثير ومع الوقت صدقه الكثير، لم يفلح جواسيس وعملاء بني الأشهب في جعل الناس يكرهونه، بل العكس تحوّل الأمر إلى دعاية ليونس لدى الناقمين على بني الأشهب فازداد أتباعه، وأصبح لكلماته صدى بين الناس، وازدادت أصوات المطالبين بأن يخرج بني الأشهب للتوضيح، أو أن يعود حكم المدينة السفلية لأصحابها دون وصاية من بني الأشهب، وأصبح تيم وحاشيته في موقف لا يحسدون عليه، وأصبحت حركة يونس أكبر من أن يعترضها، فقرر أنه لا فائدة من كتمان الأمر عن والده أكثر من هذا وأنه سيدفع إليه الأمر حتى لا يتفاقم الوضع أكثر.

follow on telegram: @librarytn

(12)

«لماذا كتمت الأمر عنى أيها الأحمق؟» صرخ العم عياش في وجه ابنه تيم والشرر يتطاير من عينيه، كان ذلك في غرفة الاجتماع بعدما انتهى الاحتفال واجتمع العم عياش برفقة ولديه والأمير سامر، كان تيم يقف أمامه يأمل أن تنشق الأرض وتبتلعه، بعدما أخبره بالأمر كله، صاح العم عياش في ولديه غاضبًا وقال: «ما أتعس حظي في أبنائي! أحدهم اختار غريبًا ليجلبه إلى الجزيرة سيجلب علينا العذاب، والآخر تركه ينشر حديثه ويفضح أمرنا بين الناس، ويكوِّن جماعة يتقوى بها وأخفى عني الأمر حتى يحافظ على مظهره بعدما فات الأوان، ولمَّا لم تدعمه بالمال والسلاح أيضًا كي يقضي علينا، أليس هذا هو الطبيب الذي أخبرتني أنه غرق في البحر ووجدت ملابسه على الشاطئ يا رضوان، إذن ماذا يفعل هنا؟».

مسح رضوان جبينه الذي كان يتصبَّب عرقًا وقال: «الأمر ما زال في متناول أيدينا يا أبي».

عقَّب تيم قائلًا: «نقتله ونطمس سيرته إلى الأبد والناس ستنسى مع الوقت».

follow on telegram: @librarytn

صاح به العم عياش غاضبًا: «كيف أقتله بعدما أصبحت له شعبية كبيرة بفضل غبائك الفريد ورعونتك، أقتله الآن بعدما انتشر حديثه، أتريدون أن يتساءل الناس عن سبب مقتله، أتريدون أن نوجه أصابع الاتهام بل نثبتها علينا».

قال الأمير سامر الذي لم يتكلم من بداية الجلسة: «هل يأذن لي العم عياش بالكلام؟».

ليردَّ العم عياش في نفاد صبر: «حسنًا تكلم أنت الآخر، وأسمِعني رأيًا آخر بلا فائدة».

ابتلع سامر الإهانة وقال: «إذا لم تفلح محاولات تشويه صورته فلْنُلْهِ الناس عنه».

أثارت كلماته انتباه العم عياش فضيق عيناه وقال متسائلًا: «ماذا تقصد؟».

- الناس تتبع وتتحدث عما هو جديد فلنجعل حديثه صيحة قديمة ولِنُلْهِ الناس بما يهمهم أكثر، إذا جاع الناس فلن يهمهم الحرية أو التأكد إذا ما كان حديثه صدقًا أم كذبًا، وسينشغلون بالبحث عن اللقمة التي تحفظ لهم حياتهم من الموت، حينها سيتفرق عنه أتباعه ويجد نفسه وحيدًا في المدينة، وسيسهل علينا التخلص منه، وحينها لن يتذكره أحد ليسأل عن مصيره.

- وماذا تقترحون؟

هنا نهض تيم محاولًا تحسين صورته أمام أبيه قائلًا: «المحاصيل يا أبي هي أثمن ما يملكه سكان المدينة، حريق صغير يلتهم المحاصيل ونوجه أصابع الاتهام إلى الطبيب وأتباعه، حينها لن نفرق عنه الناس فقط، بل سنجعلهم يكرهونه، ولن يجرؤ أحد على فتح فمه إذا ألقينا القبض عليه».

follow on telegram: @librarytn

لقت الفكرة استحسان العم عياش وأشار إليهم على الفور في تنفيذ الخطة.

وعلى الفور ومع فجر أحد الأيام التالية وفي غفلة من أهل المدينة، استيقظوا على حريق هائل في الحقول ومخازن الغلال، كانت ألسنة اللهب تلتهم كلّ شيء دون رحمة تقضي على الأخضر واليابس، تاركة خلفها بعض الضحايا والكثير من العائلات المشردة دون مأوى أو مصدر للرزق، حيث التهمت النار أكثر من نصف المحاصيل وأغلب مخازن الغلال.

وتوقفت الكثير والكثير من المصانع والورش عن العمل بسبب نقص المواد الخام، وانتشرت موجة من الغلاء في أرجاء المدينة وتوحش الجوع، فأخذ يجوب في الأنحاء ليأخذ الأرواح كأنما التاريخ يعيد نفسه، وبدأ بعض العامة القول إن هذا كله غضب من الجزيرة بسبب تمردهم على بني الأشهب، وأن يونس وأتباعه هم غربان الشؤم الذين حملوا الخراب للمدينة، وها هي المدينة التي فتحت أبوابها ليونس باسمة تغلقها أمامه من جديد وعلى وجهها عبوس الكون.

يومها جلس يونس برفقة لين على شاطئ النهر وعلى وجهه هم العالم كله على الرغم من محاولته إخفاءه، وضعت لين يدها على كتفه وقالت: «هوِّن عليك».

ابتسم يونس محاولًا إخفاء همه وقال: «لا تقلقي مجرد إرهاق فقط».

ابتسمت هي الأخرى وقالت: «لم تكن يومًا بالكاذب البارع، خبِّرني ما يهمك، من ستلقي له حمولك سواي!».

كفَّ يونس عن التظاهر وقال: «تعبت يا لين، كلما اقتربت ورأيت أن هناك أملًا، يحدث أمر ما يعيدني عشرات الخطوات للخلف، كيف أساعدهم وهم لا يريدون مساعدة أنفسهم».

follow on telegram: @librarytn

- أنت من اخترت الطريق يا يونس، فإما تتحمل للنهاية، وإما أن تترك كلَّ هذا، فأنت لست مجبرًا على استكمال الرحلة.

سكت يونس للحظات ثم قال مواجهًا لين: «فلنهرب يا لين، فلنرحل بعيدًا، أحبيني بعيدًا عن مدينة الخداع والظلم بعيدًا عن هذه البلاد التي زهدت الحب».

لتردَّ عليه لين في حسم: «يشهد الله أن أحدًا لم يشاركك قلبي سوى بلادي وأهلي، فكيف أهرب معك وأترك نصف قلبي هنا، هل يستطيع الإنسان أن يعيش بنصف قلب؟!».

ثم أردفت قائلة: «يمكنك أنت أن ترحل إذا أردت».

- دنيتي أنت ولا دنيا لي من دونك.

- إذن، ابقَ معي واستمر في المحاولة حتى يعود الحق لنا ونتخلص من بني الأشهب وأعوانهم.

تنهَّد يونس وقال: «سأكمل يا لين من أجلك ومن أجل من سُلب حقهم».

ولكن القدر كان له ترتيب آخر، في أثناء لقاء يونس بلين كان مالك في البيت، سمع صوت طرقات على الباب وعندما فتح وجدها صفية كانت تقف لاهثة، التقطت أنفاسها وقالت في خوف: «اهربا يا مالك، بنو الأشهب أرسلوا الجنود بحثًا عنكما، لقد سمعت الأنباء من الشيخ بكر وأتيت إليكما مسرعة».

- ولكن يونس ليس هنا يجب أن أبحث عنه قبل أن يصلوا إليه.

خرج مالك بحثًا عن يونس متوجهًا إلى الحقل، ولكن وقتها يونس كان قد عاد إلى البيت، وعند وصوله وجد الجنود في انتظاره فألقوا القبض عليه أمام أعين الجميع، وأخرجوا من البيت مشاعل وأسلحة كانوا قد دسوها في المنزل ليلفقوا له التُّهَم.

follow on telegram: @librarytn

وفي اليوم التالي وقف يونس في ساحة الاحتفال مقيدًا داخل قفصه تراقبه أعين جميع أبناء العشائر الخمسة، وتيم الأشهب يجلس على كرسيه يراقب الموقف في ارتياح وتشفٍّ، وخلفه يقف القائد باسل أحد قادة بني الأشهب وكان مكلفًا برئاسة سجن المدينة كان رجلًا طويلَ البنية، وعريضَ المنكبين، ذا ذراعين مفتولتين تَلِيقان بمحارب، كان يتابع يونس في قفصه باهتمام.

اعترفت وقتها لين لأخيها إياد بحبها ليونس محاولة أن تجعل سلطة أبيها تخفف عنه الحكم، ولكن الحكم قد صدر بالفعل من قِبل تيم وحاشيته بالإعدام، وكانت هذه محاكمة صورية فقط أمام الناس.

وقفت لين في الساحة وعيناها تنهمران بالدموع، ومالك يقف وسط أتباع يونس لم يلاحقه الجنود بسبب اكتفائهم بالإمساك بيونس، ولم يروا فيه خطرًا كيونس. وقف وقتها الأمير سامر الذي كان قد كُلِّف بمحاكمة يونس، وفي ثقة وثبات أخذ يوجه قذائف الاتهام إلى يونس قائلًا: «سيدي تيم، سادة بني الأشهب، زعماء العشائر، أبناء مدينتنا الفاضلة، لقد عاشت جميع طوائف المدينة من بني الأشهب، وأبناء العشائر الخمسة في سلام بعد الحرب الكبرى لقرون، بسبب جهود حاكمنا خالد الذكر عمران الأشهب، استمر السلام لسنين حتى نسي الناس ويلات الحروب، وتكفَّل بنو الأشهب بالدفاع عن المدينة من الوحوش الخارجية، ليعيش أبناء المدينة في أمان حتى أتى الفتى المدعو يونس ليحاول إشعال الفتنة وإيقاد نيران الحرب مرة أخرى، ليحقق من ورائها مصالحه الشخصية».

تعالت صيحات الناس الغاضبة وأخذوا يلقون يونس بالسباب حتى أشار الأمير سامر إليهم فساد الصمت مرة أخرى ليردف قائلًا: «ولكن يا سادة، دعوني قبل أن نحكم عليه أن نعرفكم من هو يونس الذي يزعم أنه من خارج الجزيرة.

follow on telegram: @librarytn

يونس كان جنديًّا جبانًا من جنود الجزيرة، لأكثر من مرة يهرب من المعركة في أثناء مواجهة الوحوش للدفاع عنكم، حاول تسلق السلطة أكثر من مرة، ولكن دائمًا ما كانت تبوء محاولاته بالفشل، فقرَّر اللجوء إلى خطة بديلة ألا وهي إثارة الفتنة حتى تأتي له الفرصة لتحقيق أطماعه، خان الأمانة كما خانها سليمان الأرمدي من قبل، استطاع أن يتسلَّلَ في أحد أيام الاحتفال بين الجموع مستغلًّا طيبة قلب أبناء المدينة وأخذ ينشر سمومه بين الناس متجنيًا على بني الأشهب ظلمًا بالخداع واستغلال أهل الجزيرة، وعندما لم يستطع تحقيق مراده قرَّر أن يؤذي الناس في أرزاقهم».

أزاح قطعة من القماش كانت تغطي شيئًا بجانبه لتكشف عن مشاعل وأوعية من الزيت وبعض السيوف والخناجر ثم تابع حديثه قائلًا: «هذا ما وجدناه في غرفة المدعو يونس، استخدم هذه الأدوات في إشعال الحرائق التي التهمت أرضكم ومحاصيلكم، بعدما فشل في الاحتيال على عقولكم، قرر حينها إثارة الفوضى بحرق محاصيلكم، لنشر الجوع والخوف والهلع ونشر الفوضى التي ستمكنه من تحقيق هدفه».

تعالت صيحات الناس أكثر، ويونس يصيح وينادي في قفصه: «أقسم إني لم أرتكب أيًّا من هذه الجرائم، لم أُرِدْ إلا الخير، ولم أُوذِ أحدًا في يوم من الأيام».

ولكن صوت صيحات الناس وسبابهم غطَّى على صوته، تعالى وقتها أيضًا صوت أتباعه بقيادة مالك يهتفون: «الحرية ليونس، الحرية ليونس».

قرع الجنود على المنصة طبولهم، اجتمع تيم ووجهاء بني الأشهب وحكام العشائر الخمسة، أجمعوا أمرهم على إعدامه، إلا والد لين رأى أن يُسجن فقط، مال حينها القائد باسل على تيم وقال: «سيدي لا يجب أن تـأمر بإعدامه على المنصة أمام الجميع، أتباعه كُثُر، وإذا رأوه في هذه

follow on telegram: @librarytn

الحالة قد يخلقون فوضى لن نستطيع احتواءها، أصدر الأمر بإعدامه داخل السجن تجنبًا لخلق أزمة نحن في غنى عنها».

وافق تيم على كلامه وتوجه إلى صدر المنصة ووقف أمام الجميع قائلًا: «بعد التشاور مع حكماء المدينة وبموافقة الأغلبية حكمنا على المدعو يونس بالإعدام داخل جدران سجن أزمور».

تعالت صيحات الناس بين منددٍ بالحكم وفرحٍ به، توجَّه الحراس إلى القفص وجرُّوا يونس مكبلًا بالأصفاد وسط الجموع، لم يشعر يونس بشيء حوله، لا حزن من الناس ولا فرح، كأن روحه زهدت مشاعر الحياة، وتوجهوا به إلى السجن القابع قرب المناجم القديمة.

وفي سجن أزمور وفي إحدى الزنزانات الموحشة حُبس يونس وحيدًا في مكان مظلم لا يصل إليه ضوءٌ، رائحة العفن تعبق المكان، الأوساخ والأتربة في كلِّ مكانٍ وصمت مرعب من حوله لا يقطعه سوى صوت صرير الفئران، يلقى أسوأ معاملة من الحراس الذين لم يتوانوا لحظة في سبه أو إهانته كلما أتيحت لهم الفرصة، يلقون له فتات الطعام القذر الذي عافته نفسه، حتى أوشك على الموت جوعًا فضعف جسده ووهنت قواه وبدا أنه سيموت قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام.

وفي أحد أيام حبسه سمع الجنديان على الباب يؤديان التحية، وفتح الباب ليظهر أمام ضوء المشاعل ظل أربعة أشخاص، لم يتبين وجوههم في البداية بسبب الظلام، حمل أحدهم المشعل ليتبين أنه رئيس السجن باسل والثلاثة الآخرون كانوا العم عياش وابنيه رضوان وتيم، دخل الأربعة إلى الزنزانة التي كان يونس مقيدًا في أحد أركانها، تقدم منه تيم ووضع أمامه وعاءً من الطعام الفاخر الذي كان يتناوله سكان المدينة العُلوية دفع العم عياش وعاء الطعام بعصاه أمام يونس وقال: «كُل يا طبيب، أعلم أنك لم تذق الزاد منذ أيام».

follow on telegram: @librarytn

بصق يونس على الأرض بجانبه، فاندفع إليه رضوان وأخذ يوجه له الركلات حتى صاح به العم عياش ليتوقف: «يكفي يا رضوان».

تقدم العم عياش من يونس المتكوِّم على الأرض في ألم، والدماء تسيل من وجهه، انحنى العم عياش مستندًا إلى عصاه وقال: «ما الذي دفعك إلى هذا، كان من الممكن أن تعيش بيننا عيشةً لم تكن لتحلم بها في أبعد أحلامك، ما الذي أجبرك على هذا الشقاء؟».

قال يونس بعدما اعتدل في جلسته متحاملًا على نفسه في ألم: «الذي أجبرني هو غشكم وخداعكم لتحصلوا على ما لا تستحقونه».

علت نبرة صوت العم عياش قليلًا: «وأنت ما دخلك بكلِّ هذا، لست من بني الأشهب ولست من أهل الجزيرة، من الذي عيَّنك مدافعًا عنهم؟!».

- وأنتم مَنْ عيَّنكم أوصياء على العباد، تسلبونهم أرزاقهم وقتما شئتم وتعطونهم وقتما شئتم، الأرض أرضهم والخيرات لهم، ما أنتم إلا متطفلون على هذه البلاد، ادعيتم حقًّا ليس لكم وتحكمتم في الناس لتحقيق أطماعكم.
- اسمع أيها الفتى، هذه البلاد عاشت على هذه الحال لسنوات من قبل أن يولد أجدادك، بلاد لم تعرف الوحدة ولم تذق إلا الدماء، لم تعرف هذه الأرض السلام إلا بفضلنا، عندما تُركت لأهلها أضاعوها من أيديهم، حتى وإن كانت خدعة، فاعتبر ما نحن فيه الآن مكافأة على ما قدمناه لهم، نحن كنا رحمة الله بهم من شرور أنفسهم.

سعل العم عياش بشدة عدة مرات وأخرج من جيبه منديلًا وضعه على فمه فظهر عليه بقعة كبيرة من الدماء لاحظها يونس فقال: «المرض تملَّك من جسدك ولم يعد أمامك سوى القليل، افعل شيئًا واحدًا جيدًا يشفع لك قبل موتك».

follow on telegram: @librarytn

قهقه العم عياش بقوة ثم قال: «أتظنني أخاف من الموت يا طبيب، لقد تقبلت الموت منذ سنوات عديدة قبل أن تطأ قدمك هذا المكان، هذا المرض تستطيع أن تعده وسامًا حصل عليه زعماء بني الأشهب علامة على تفانيهم، ثم إني مؤمن أني لم أفعل شيئًا سوى لمصلحة قومي، ما أنا إلا قَدَر هذه الجزيرة الذي كان عليه أن يتحقق يومًا ما. هم ظلموا أنفسهم فكنا نحن العقاب الذي يجب أن يحل عليهم».

- لا تفترِ على الله الكذب، ولا تحاول تبرير ما تفعله هنا من جرائم، ما أنتم إلا مجموعة من اللصوص الذين يخشون حتى مواجهة أنفسهم بما ارتكبوه، فتخلق المبررات لجرائمك، فتذكر أن الله يمهل ولا يهمل، وسيأتي اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة ويعود الحق لأهله سواء كنت حيًّا أم لا.

تبدلت ملامح العم عياش ونادى منفعلًا: «يا باسل».

تقدم منه القائد باسل وقال: «أمرك يا عم عياش».

- نفِّذ فيه حكم الإعدام غدًا، وأريدك بعد إعدامه أن تحرق جثته لتطمس معها هذه القصة السخيفة إلى الأبد، وأريدك أن تشهد تنفيذ الحكم بنفسك.

خرج الجميع من الزنزانة تاركين يونس يمضي فيها ساعاته الأخيرة قبل تنفيذ الحكم.

***

في اليوم التالي ومع اقتراب المساء فتح باب الزنزانة ليظهر منه القائد باسل ومعه جنديان وضعوا القيود في يد يونس واقتادوه عبر الزقاق المظلم في أحد أروقة السجن وهو يسترجع شريط حياته أمام عينيه، كلُّ ما رآه وكلُّ ما مَرَّ به منذ قدومه، وحتى الآن تذكر الجميع، مالك وزين والإخوة

follow on telegram: @librarytn

الخاطفين وصفية ولين، وصلوا إلى غرفة الإعدام، فدخل أحد الجنود مع القائد باسل مصطحبين يونس، وبقي الآخر على الباب، أغلق الجندي الباب وما هي إلا دقائق حتى سُمِع سقوط السيف وتنفيذ الإعدام، وبعدها تعالت ألسنة اللهب ليفتح بعدها الجندي ويرى الجثة المتفحمة، أشار القائد باسل إلى الجندي فتوجَّه مسرعًا إلى قصر تيم الذي كان منهمكًا في إحدى جلسات السمر، دخل عليه المجلس فأشار إليه بالكلام فقال: «سيدي تيم، القائد باسل يخبرك بأن إعدام يونس قد تم».

follow on telegram: @librarytn

(13)

توحشت الحياة على رفاق يونس بعد وصول خبر إعدامه، لم يصدق زين الخبر في أول زيارة للمدينة، وظل يُكذِّب الجميع حتى سلَّم بالأمر في النهاية. مالك أصابه الوجوم لأيام، ولكنه بعد ذلك عزم على الأخذ بثأر يونس ممن كانوا السبب في قتله، أعاد التواصل مع مؤيدي يونس وأعاد إحياء دعوته ولكن بشكلٍ سريٍّ هذه المرة.

وأما لين فاعتزلت الناس ولزمت غرفتها وامتنعت عن الطعام حتى اصفرَّ وجهها ونحل جسدها ولم تفلح معها محاولات الأطباء الذين جلبهم والدها فأصبحت تأكل مرة وتمتنع مرات.

وتمر الأيام وقبضة بني الأشهب تصبح أكثر إحكامًا على المدينة وتزداد منازلهم بريقًا وتزداد بيوت أهل المدينة وحشة. وفي يوم من الأيام تملك المرض من جسد العم عياش واستيقظوا ليجدوه ممددًا في سريره كالحَمَل الوديع بوجه غير عابئ بكلِّ ما ارتكبه من جرائم وبكلِّ الأرواحِ التي أزهقت بسببه في سبيل تحقيق مجده.

وُضِع جسده في تابوت من الذهب المرصع بالياقوت الأحمر الذي كان يكفي ثمنه لسد جوع أهل أزمور لسنوات، وفي جنازة مهيبة شهدها

follow on telegram: @librarytn

كلُّ أبناءِ الجزيرة شُيِّع جثمانه من القصر الكبير حتى مثواه الأخير خلف الجبل الأسود، فبكاه بنو الأشهب والخاصة لأيام، وتشفَّى في موته الأرمد واختلطت مشاعر المدينة السفلية بين كاره لبني الأشهب يراهم مغتصبين للأرض ففرح بموته وبين محب لهم يراهم مخلصين فحزن على موته.

وفي حفلة مهيبة لم تشهد الجزيرة لها مثيلًا، أُعلن رضوان حاكمًا جديدًا للجزيرة، تزيَّن القصر الكبير بالذهب والفضة في كلِّ أركانهِ، وأقيمت الاحتفالات لعشرة أيام متواصلة لم تنم فيها الجزيرة، وأقيمت فيها الولائم وذبحت الذبائح ورقصت الجواري ووزعت العطايا والنقود على الجميع فوق الجزيرة وتحتها، حتى فرح الناس وتفاءلوا بالحاكم الجديد ولكن ما لبث أن تبددت فرحتهم وتحولت إلى غم وحزن.

فالحاكم الجديد الذي تفاءلوا بمجيئه تبدل وجهه وأظهر نياتهم الحقيقية، لم يكن رضوان بدهاء والده يعلم كيف يضحك على عقول الناس ليكسبهم في صفه وإنما كان شديدًا غليظَ القلب فزاد من قيمة الواجب المفروض على أهل المدينة، ونشر جنوده وزاد من سلطتهم حتى أخذ الجنود يهينون ويضايقون أهل المدينة بغير سبب، وتمادوا في مضايقاتهم للمارة فأصبحوا يسرقون أقوات الناس علنًا فسخط أهل المدينة عليهم حتى من ساندوهم ودعموهم في الماضي بعدما كانوا يرونهم في هيئة الأبطال المخلصين، واستمروا في تجاوزهم مع الأرمد فبالغوا في تحقيرهم وعذابهم وسلبوهم أجورهم، وأصبحوا يعاملونهم معاملة العبيد، فكرههم من فوق الأرض ومن تحتها إلا القليل من أهل المدينة السفلية الذين كانوا يعيشون على العطايا من بني الأشهب من أجل تمجيدهم أمام الناس، وعاد الحديث مرة أخرى بين الناس، هل كان يونس على حق وأن بني الأشهب ما هم إلا لصوص، أم أن رضوان وأخاه تيم ما هما إلا ثمرة فاسدة في شجرة بني الأشهب؟

follow on telegram: @librarytn

ولم يكتفِ رضوان بما فعل بل تمادى أكثر بأن قرَّرَ إلغاء مجلس المشورة الذي كان يُعْقَد مرةً كلَّ شهرٍ مع زعماء العشائر، فاستأثر بالحكم لنفسه وأخذ يردد على الملأ أن هذه الأرض ورثها عن أبيه، وأن الله لم يُعطِهم ملكها إلا لأنهم أفضل مَنْ في الأرض، فحقٌّ على أهل الجزيرة أن يعيشوا خدمًا لبني الأشهب، وعندما حاول أمراء بني الأشهب أن يثنوه عمَّا يفعل كان دائمًا ما يردد: «هذه الجزيرة تُحكَم إما بالخدعة وإما بالقوة، وأنا سأختار القوة لحماية ملكي».

ولأول مرة شهدت الجزيرة احتجاجات ومظاهرات من أبناء المدينة السفلية ونادى الأهالي برفع الظلم عنهم، ولكن رضوان لم يكن بالشخص الذي يتقبل أمرًا كهذا، فأمر الجنود بقمع كلِّ مَنْ تمرَّد ضده، وانطلق الجنود يعبثون في أرجاء المدينة، وينهبون ما تصل إليه أيديهم، ويقتلون من يعترض طريقهم فكرههم الناس أكثر، وتحوَّلت صورة بني الأشهب في أعينهم من المُخلِّص إلى المغتصب.

أمَّا تيم -الذي كان من المفترض أنه حاكم المدينة السفلية ونائب أخيه على المدينة- لم يعد يعبأ بأحوال مدينته، اتخذ من قصره الكامن فوق التل وكرًا لملذاته، يمارس فيه ما لذَّ له وطاب، فانهمك في شرب الخمر والتنقل بين أحضان الجواري وإقامة الحفلات بشكلٍ يوميٍّ، التي كان يصرف فيها ببذخ، وينزل العطايا على حاشيته الفاسدة بعدما أبعد يده عن الحكم، وترك المدينة لأصدقائه يعبثون فيها كيفما يشاؤون، وكان رضوان لا يهتم بأحوال الناس، كلُّ ما يهمه أن تصل له الضرائب كاملة بلا نقصان في وقتها المحدد.

أحسَّ زعماء العشائر ببشاعة ما ارتكبوه بدعمهم لبني الأشهب فتخلَّى أكثرهم عن الزعامة، ومَنْ ظل على تواطئه منهم ولم يتنحَّ، خلعه ابنه وتولى

follow on telegram: @librarytn

زعامة العشيرة مكانه فظهر في زعامة العشائر جيل جديد كارهًا لبني الأشهب وأعوانهم، كان أبرزهم إياد أخو لين الذي تزعَّم العشيرة الثالثة.

أدرك الجيل الجديد من الزعماء أن الوضع أصبح لا يمكن السكوت عليه، وأنهم إن غضوا الطرف عما يفعله بنو الأشهب سيتمادون أكثر، فقرر إياد أنه لن يقف مكتوفَ الأيدي، فأرسل أعينه إلى المقاطعات الأربع الأخرى، فعلم أن أمراء العشائر الأخرى لهم التفكير نفسه، فبدأت المراسلات السرية بين الأمراء الخمسة إلى أن طلب إياد أن يلقاهم واتفقوا على اللقاء في مكان متوارٍ بالقرب من البحيرة الكبيرة، وحدَّدَ موعد اللقاء عندما يحلُّ الظلام حتى لا يفطن لهم أحد، وأرسل أيضًا في طلب مالك بصفته الزعيم الجديد لأتباع يونس لحضور اجتماعهم السري.

وعلى ضوء أحد المصابيح الزيتية التي حملها أحدهم اجتمع الأمراء، ومعهم مالك في المكان المتفق عليه، كان الأمراء الخمسة في سن متقاربة مما سهل عليهم توضيح وجهات النظر لبعضهم، تقدم إياد الذي دعا للاجتماع قائلًا: «أيها الأمراء، إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي بكم الآن، ومن المؤسف أن يكون هذا أول لقاء بيننا ونحن أبناء قبيلة واحدة».

ليردَّ عليه أمير العشيرة الثانية: «لعنة الله على الحروب والخلافات القديمة التي قسَّمت الإخوة».

ليقولَ إياد: «بنو الأشهب تمادوا في أفعالهم وأصبحوا يسعون في الأرض الفساد».

ليردَّ أمير العشيرة الأولى: «وجودهم من الأساس كان لحمايتنا، فكيف يحموننا الآن وهم أنفسهم أكبر خطر علينا؟!».

فقال أمير العشيرة الرابعة: «رضوان وتيم لا يستمعان إلى أحد، كلُّ ما يهمهما نهب خيرات بلادنا، تاركيْن حاشيتهما يفعلون بالمدينة ما يشاؤون».

follow on telegram: @librarytn

ليقولَ أمير العشيرة الخامسة: «وما الذي يمكننا فعله بعدما انتهى العالم بالخارج، وهم من يقفون حائلًا بيننا وبين الوحوش».

ليردَّ إياد قائلًا: «لا أخفيكم سرًّا، ولكنني أظن أن ما كان يقوله يونس صحيحًا، وأن بني الأشهب صنعوا خدعة كي لا نتمرد عليهم».

تدخل مالك في الحديث وقال: «يونس كان صديقي وأستطيع أن أقسم بأن ما كان يقوله هو الحقيقة».

فردَّ أمير العشيرة الخامسة مرةً أخرى: «إذا اتضح أنه كان يكذب ماذا سنفعل مع الوحوش؟».

فقال إياد: «إذا كانت الوحوش حقيقية فحسب بني الأشهب أن يحمونا منها من أعلى الجزيرة، لا نريدهم بيننا نحن أبناء المدينة والأحق بحكمها دون وصاية، يجب أن يرحل جنود بني الأشهب من مدينتنا على الفور».

همهم باقي الأمراء بالموافقة وقال أحدهم: «أنا أوافقك تمامًا فيما تقول، ولكن كيف سنفعل هذا، هل سنذهب إلى القلعة ونعرض مطالبنا أمام رضوان وتيم مرة أخرى؟».

ليردَّ عليه آخر: «لقد ولَّى زمن الحديث، لو كان للحديث جدوى لأنصت إلينا منذ زمن، ولكن بعدما حل مجلس الحكم وانفرد بالقرار لنفسه، انتهى زمن الحديث وحان الوقت لنأخذ خطوة جادة».

- ولكن ماذا سنفعل؟

ساد الصمت للحظات قطعها إياد قائلًا: «نحن سادة العشائر الآن وأمراؤها، وكلمتنا مسموعة حتى وإن همَّش رضوان دورنا، فلنحشد شباب العشائر وليخرج الجميع في وقت واحد، لنواجه بني الأشهب ونطردهم من بلادنا حتى تعود الأرض لأهلها».

follow on telegram: @librarytn

قال أحد الأمراء: «ولكن ما العمل إذا فشلت خطتنا وأحكم بنو الأشهب قبضتهم على البلاد مرة أخرى حينها لن يتركوا أخضرَ ولا يابسًا إلا وأخذوا ثأرهم منه».

فقال إياد: «الوضع في مدينتنا كارثي من الأساس، ونيل الحرية لم يكن يومًا بالأمر الهين فإما أن تنتصب قاماتنا الآن، وإما أن تظل ظهورنا محنية إلى يوم القيامة».

قال مالك: «أما نحن أتباع يونس لن نتوانى لحظة في التضحية بأنفسنا من أجل استرداد كرامتنا».

أمَّن باقي الأمراء على كلامهم، واتفقوا على أن يعدَّ ويجهز كلُّ أميرٍ شباب عشيرته في سرية، وأن يتكتموا الخبر إلا عمن يثقون بهم بشكلٍ كاملٍ حتى لا تتسرب الأخبار إلى بني الأشهب، واتفقوا على أن يكون موعد تحركهم في اليوم التالي للاحتفال حتى يكون هناك فترة تكفيهم قبل أن يأتي بنو الأشهب الدعم من فوق الجزيرة.

أخفى الأمراء أمر التحرك عن الجميع خوفًا من تناقل الخبر، حتى مَن كان يجندوا لم يعلموا بأمر التحرك، كان السبب المعلن هو حماية الممتلكات من النهب بواسطة الجنود، وعلى الرغم من تكتم الأمراء الخبر، فإن الأنباء عن تحركات غريبة في المقاطعات قد وصلت إلى مسامع الأمير سامر الذي توجه إلى تيم الذي كان في مضجعه يحمل في يده كأس الخمر وحوله الجاريات يرقصن والعازفات يعزفن الألحان ليطربن مجلسه، قال سامر لتيم: «بلغتني أنباء عن تحركات غريبة للشباب وتدريبات يقومون بها في المقاطعات يا سيدي، فكان يجب أن أخبرك بالأمر لنرى كيف سنتصرف».

قابل تيم الخبر بعدم اهتمام حتى إنه لم يلتفت إلى سامر، وظل يتطلع إلى الجارية التي تتمايل أمامه وقال في عدم اكتراث: «اطلب من الجنود

follow on telegram: @librarytn

أن يخففوا قبضتهم قليلًا عن الناس، هم فقط خائفون ويريدون حماية ممتلكاتهم خذوا ما تريدون ولكن ليس مرة واحدة».

أدرك سامر أن الحديث مع تيم لن يجدي نفعًا، فعزم على مخاطبة رضوان في يوم الاحتفال لعله يكون أكثر حرصًا من أخيه.

أتى يوم الاحتفال، كلُّ شيءٍ طبيعيٌّ، تزعَّم العم رضوان المراسم وانتهى الحفل واجتمع بأخيه وحاشيته من بني الأشهب، وحمل رجاله خيرات المدينة وعادوا إلى سطح الجزيرة.

وفي اليوم التالي وعندما بدأ الضوء الذهبي في الظهور من السقف، استيقظت المدينة على أفواج الشباب يتدفقون من المقاطعات الخمسة، محملين بأسلحة خفيفة وهموم ثقيلة وغضب عارم تجاه جنود بني الأشهب، انطلق الشباب في شوارع وحارات كلِّ مقاطعةٍ أمامهم هدف واحد إما الكرامة وإما الموت، اعترضهم جنود بني الأشهب فدارت بينهم معارك في طرقات المدينة، ولكن عنصر المفاجأة وكثرة أعداد أهل المدينة جعل كفتهم هي الأرجح، فوجد جنود بني الأشهب أنفسهم في موقفٍ حرج، وتراجعوا هاربين من شوارع المدينة لينجوا بحياتهم.

فرَّ الجنود من المقاطعات الخمسة إلى ساحة الاحتفال ولاحقهم شباب المدينة، تراجع الجنود حتى وصلوا إلى تلال بني الأشهب، حينها أيقن الشباب أن الجنود قد ضاقت بهم الأرض أخيرًا وسيعلنون استسلامهم، ولكن استمر الجنود بالتراجع حتى وصلوا إلى التل الذي يعلوه قصر تيم الأشهب، وفجأة انقلب الوضع رأسًا على عقب، ظهرت من خلف التلال أعداد هائلة من جند بني الأشهب كانوا متوارين خلف التل، كان الأمير سامر قد التقى برضوان يوم الاحتفال وأطلعه على شكوكه، وكما توقع كان رضوان مختلفًا عن أخيه، فأمر بأن يبقى نصف جيش بني الأشهب في المدينة السفلية بعد الاحتفال دون أن يعلم أحد، ويظلوا متوارين في القصور

follow on telegram: @librarytn

حتى إذا حدث تمرد يكونون جاهزين لقمعه، وبالفعل وجد شباب المدينة أنفسهم محاصرين بين جنود بني الأشهب من الأمام ومن الخلف، فظلَّ الجنود يهاجمونهم دون رحمة، والأمير إياد يصرخ في جنوده يدعونهم للثبات قائلًا: «اثبتوا يا رجال، اثبتوا يا رجال إما الحرية وإما الموت».

اشتدَّ القتال وسقط الكثير من القتلى حتى إن مياه البحيرة تلونت بالأحمر لكثرة ما أُريق بجانبها من دماء والجنود مستمرين في القتال كأن التعب لا يعرف لهم طريق. شعر إياد والأمراء ومن معهم من شباب أن الموت قريب ولا مهرب منه، وأن النهاية قادمة لا محالة، فنادى فيهم قائلًا: «يا رجال العشائر، إذا لم يكن هناك من الموت بدٌّ، فعارٌ عليَّ أن أموت جبانًا، فلنمت -إخوتي- ونحن رافعو الرؤوس، مدافعون عن حريتنا، لقد رفعنا رؤوسنا اليوم ولن نحنيها مرة أخرى، فلتعش أزمور».

- تعيش أزمور، تعيش أزمور.

سمعها إياد ومن معه تأتي من ناحية المناجم من الطرف الآخر من البحيرة، وسنابك الخيول تدك الأرض من تحتها، لتظهر فرقة من الفرسان على ظهور الخيل تنطلق كالبرق إلى ساحة المعركة ويقودها على فرسه القائد باسل وبجانبه يونس!

التحم الفريقان، فأصاب جنود بني الأشهب الهرج والفزع بين صفوفهم لهول ما حدث فتشتت جمعهم ووهن عزمهم، دارت معركة طاحنة بين جيش المدينة الذي انضم إليهم جند القائد باسل وجيش بني الأشهب، ارتفعت الروح المعنوية للجنود بصحبة الأمير إياد واشتدَّ القتال، فلم يستطع جند بني الأشهب الصمود، وسقط أغلبهم وأُسر الباقي، وأعلن بنو الأشهب استسلامهم، صعد الشباب إلى التلال وحاصروا قصور أمراء بني الأشهب فاستسلموا مع الوقت، وخرجوا من قصورهم صاغرين وعلامات الخزي على وجوههم وفي مقدمتهم الأمير سامر، الكلُّ استسلم إلا تيم الذي

follow on telegram: @librarytn

أبَى الخروج وأغلق عليه أبواب قصره وخرج إلى نافذة القصر، وظل يسب ويلعن أهل المدينة ويصيح كالذي أصابه الجنون متوعدًا أهل المدينة قائلًا: «أيها الحمقى، ستندمون على فعلتكم، سيأتيني المدد من أخي رضوان، ولن أترك منكم واحدًا على قيد الحياة، لم يسقط بنو الأشهب قطُّ ولن يسقطوا أبدًا».

ظلَّ يهذي بعبارات غير مفهومة، فاندفع الشباب إلى قصره، وعندما سمع أصواتهم في ردهات القصر بعدما استطاعوا اقتحامه لم يتقبل فكرة أن يقع في الأسر، فألقى بنفسه من نافذة القصر ليموت وتبقى جرائم أسرته حية في أذهان أهل المدينة.

***

لم يصدق مالك عندما رأى يونس أمامه فاحتضنه والدموع تنهمر من عينيه، همس له يونس قائلًا: «لقد افتقدتك يا صديقي».

فانهمرت الدموع أكثر من عينَي مالك وعجز لسانه عن التعبير، لم يصدق أهل المدينة عندما رأوا يونس في ساحة المعركة حتى إن أحدهم صرخ وقال: «إنه جن لقد عاد من الموت».

أرسل إياد أحد الجنود إلى أخته لين لتحضر إلى خيمته التي نصبت في ساحة الفداء التي أعلنوا تغيير اسمها إلى ساحة النصر، وأمر جنوده بأن ينادوا في المقاطعات الخمسة ليتجمع كلُّ سكانِ المدينة في الساحة.

حضرت لين إلى الساحة لم يطلعها الجندي على ما حدث بأمر من الأمير إياد، فكانت قلقة خشية أن يكون هناك مكروه قد أصاب أخاها، وازداد قلقها عندما رأت تجمع الناس حول خيمته وتهامس الناس في أثناء مرورها إلى الخيمة.

follow on telegram: @librarytn

دخلت لين إلى الخيمة فتحول قلقها إلى صدمة وعدم تصديق عندما رأت يونس أمامها، كانت تظن نفسها تحلم نسيت أنها أميرة، ولم تهتم بكلّ مَنْ حولها أو بالعالم بأسره، اختفى كلُّ شيءٍ ولم ترَ أمامها سوى يونس، اندفعت ناحيته في لهفة فتعثرت من شدة اندفاعها وسقطت على الأرض، تقدم يونس منها وانحنى على الأرض إليها، نظرت إليه وعيناها الزيتيتان لا تكادان تظهران من كثرة الدموع، وخرجت الكلمات من ثغرها الباسم متلعثمة قائلة في لهفة: «كنت متأكدة أنك لم تمت، لم أفقد الأمل يومًا في عودتك».

فقال لها يونس مبتسمًا: «لقد أخبرتك من قبل دنيتي أنتِ ولا دنيا لي من دونك، وأنا أردت التمسك بهذه الدنيا».

ثم نهض مخاطبًا إياد: «سمو الأمير اسمح لي أن أطلب يد أختك للزواج».

***

حكى لهم يونس عن كيفية نجاته من الموت قائلًا: «بعدما نُقِلت إلى السجن أمضيت أيامًا أذوق فيها ألوان العذاب من الجنود، حتى أتى العم عياش إلى زنزانتي وأمر بتنفيذ حكم الإعدام، أتى اليوم وحضر إلى زنزانتي القائد باسل ومعه جنديان اقتادوني إلى غرفة الإعدام، أدركت أنها نهايتي، وضع أحد الجنديين قناعًا أسودَ على وجهي، وخرج من الغرفة وأغلق الباب وانتظر خارجها لثوانٍ، ووجدت السيف يهوي ولكن ليس على رقبتي لحسن الحظ كان الجسد الذي فُصل رأسه هو جسد مسجون آخر مات في اليوم نفسه، ثم أمر القائد باسل الجندي الباقي في الغرفة بإحراق الجثة حتى تفحَّمت تمامًا ولم يعد لها ملامح، ومن أحد أركان الغرفة ضغط القائد الباسل على حجر في الجدار فانفتح باب سري يقود إلى سرداب تحت الأرض، أمرني أن أهبط إلى السرداب، وأنتظر حتى يأتيني، سمعت بعد دخولي السرداب وإغلاق بابه صوت باب الزنزانة يُفتح ويدخل الجندي

follow on telegram: @librarytn

مرة أخرى، فيأمره القائد باسل بإبلاغ تيم أن حكم الإعدام قد نفِّذ، وما هي إلا دقائق حتى عاد الجندي وبصحبته تيم الذي أخذ يهزأ بالجسد المحترق ويسبه معتقدًا أنه أنا، ثم أمر بدفن الجثمان في منطقة لا يعرفها أحد حتى لا يعلم مَن صدقوني أين مثواي.

عاد تيم إلى قصره وبعدها بدقائق فُتِح باب السرداب ودلف إليه القائد الباسل، سار القائد باسل وأنا من خلفه داخل السرداب حتى وصلنا إلى نهاية السرداب، كان مسدودًا بباب خشبي، دَفَعَه فأزيح وما فوقه من تراب يخفيه عن الأعين، خرج القائد باسل من السرداب وأنا خلفه فوجدت مجموعة من الرجال في انتظاره، سرنا معهم حتى وصلنا إلى مجموعة من الكهوف القديمة المهجورة الممتدة داخل الجدران، وكان هناك الكثير من الرجال داخل هذه الكهوف ينتظرون وصولنا واقفين أمام أحد الأكواخ المقامة داخل الكهوف، دخلنا إلى الكوخ لنجد عجوزًا أعمى العينين يبلغ المئة من عمره كان يُدعى «الشيخ سالم»، جلست أمام الشيخ فقال: «مرحبًا بالطبيب الهابط من السماء».

فرددت عليه: «لم أقل قطُّ أني هابطٌ من السماء، أنا مجرد رجل أراد أن يعرِّفَ الناس الحقيقة فكنت على شفا الهلاك».

قاطعني الشيخ قائلًا: «نحن نصدقك ونعلم أنك تقول الحقيقة».

ثم أشار إلى القائد باسل فتكلم قائلًا: «ما لا يعرفه الجميع يا طبيب أنني في الأساس من الأرمد كان أبي وأمي يعملان في قصور أحد السادة، وكانت زوجته لا تنجب فأخذوني من أهلي وأنا ابن الخامسة، متجاهلين بكاء أمي واستجداء أبي، وقاموا بطردهما من القصر ونسبوني لهم، فتحولت بين ليلة وضحاها من أرمدي إلى أشهبي، كبرت في قصرهم وتربيت على أيديهم، ولكنني لم أنسَ يومًا بكاء أمي يوم أخذوني منها، وأصولي التي وإن غيروها باقية في ذهني كالوشم الذي لا يزال، ولمَّا كبرت

follow on telegram: @librarytn

قررت زيارة أهلي في حي الأرمد، وعند سؤالي عنهما عرفت أنهما ماتا منذ زمن حزنًا على فقداني فازدادت كراهية بني الأشهب في قلبي وعزمت على الانتقام منهم، ولكني انتظرت حتى تأتيني الفرصة، انتهزت ثراء أبويَّ الجديدين وظللت أتدرج في المناصب وأتقرب من السادة حتى أصبحت من حاشية العم عياش، وأوكلني رئاسة سجن أزمور في المدينة السفلية لأكون ذراعه التي تبطش بكلِّ مَنْ تسوِّلُ له نفسه التمرد عليه، كان كلُّ فترةٍ يظهر أشخاص يطالبون بحقوقهم في المدينة السفلية لكن سرعان ما كان ينفذ فيهم حكم الإعدام وفي السجن تعرفت على الشيخ سالم».

تابع الشيخ سالم الحديث قائلًا: «كان آبائي تجارًا مقربين من الأمراء على مدار السنين، فأعلم كثيرًا من القصة الحقيقية للجزيرة، وأعلم أنه بعد انقلاب سليمان الأرمدي على عمران الأشهب نفاه ليعيش تحت الأرض كنوعٍ من العقاب، ولكن مع الوقت خاف أن يفشي سره فدبَّرَ أمر خيانته وأعدمه أمام الجميع في الساحة، وتناقلت الأقاويل أنه قبل إعدامه كتب كلَّ حقيقةِ الجزيرة والدليل على كذب وخداع بني الأشهب ودفنه في منطقة ما في المدينة لا يعلمها أحد حتى الآن، كانت آخر كلماته قبل إعدامه: «لن تنسى هذه الأرض ما فعلتم بها، حتى وإن محوتم عقول الناس وإن نسيت الجزيرة فلن تنسى أشجار الزيتون هذه الدماء التي رويت بها جذورها، وستحمل دائمًا حقيقتكم التي ستظهر يومًا ما».

أما أنا فكنت دائم الاعتراض على نظام بني الأشهب في شبابي وأراهم محتلين للأرض، لم نكن وقتها نعلم بأن العالم لم ينتهِ، ولكنني كنت ضد أن نعطي نصف ما نجنيه لبني الأشهب، وأن يحكم مدينتنا أغراب ونحن أهلها، نحن أولى بها فكنت دائمَ الصدام معهم منذ أن كان عياش شابًّا صغيرًا، حتى إنه في أحد الأيام أمر بنو الأشهب بإلقائي في السجن، وليتفننوا في تعذيبي لم يأمروا بإعدامي وتركوني حتى أتعفن في السجن،

follow on telegram: @librarytn

وفي أثناء مكوثي في السجن تعرفت إلى القائد باسل وحكى لي قصته ونشأت بيننا صداقة، وقتها كان بنو الأشهب قد أفرغوا هذه المناجم التي يومًا ما كانت عامرة بالذهب والفضة وهجروا المنطقة بسبب بُعدِها عن المدينة الأصلية، فلاحت للقائد باسل فكرة ألا وهي نقلي أنا وكل مَن حُكِم عليه بالإعدام لمعارضته بني الأشهب إلى هنا ويُلفِّق إعدامًا مزيفًا لكلٍّ منَّا، ومع الوقت ازداد اعتراض الناس على بني الأشهب وازداد المحكوم عليهم بالإعدام، فكوَّنا هنا مجتمعًا لكلِّ مَنْ بطشت به يد بني الأشهب وعينوني شيخًا لهم، فكنت أنتظر اليوم الذي سيأتي فيه الشخص الذي سيعرف الجميع بالحقيقة لتنجلي غمة بني الأشهب إلى الأبد حتى أتيت أنت وذاع صيتك في المدينة حتى وصل لنا هنا».

- أنا؟!

- نعم كنت أنتظر أن يُلقي بنو الأشهب القبض عليك في وقتٍ منذ أول يوم ظهرت فيه، لكن تيم بحماقته تركك في المدينة حتى أصبح حديثك على كلِّ لسانٍ فأعطانا بهذا فرصة حتى يسمع كلُّ مَنْ في الجزيرة الحقيقة حتى وإن لم يصدقها فسيضعف إيمانه ببني الأشهب، والآن وبعد انضمامك لنا حان الوقت لتقود هؤلاء الرجال من أجل استرجاع الأرض.

ثم استطرد يونس قائلًا: «بقيت بين ساكني المناجم شهورًا مات فيها الشيخ سالم ونصَّبوني زعيمًا لهم، كنا نتدرب فيها بشكلٍ يوميٍّ حتى وصلت إلينا أنباء استعداد أمراء العشائر لمواجهة بني الأشهب، وجدتها الفرصة المناسبة أخيرًا لنخرج من المناجم وانضممنا إليكم في المعركة في الوقت المناسب».

follow on telegram: @librarytn

(14)

«سيدي، تجمع كلُّ أهلِ الجزيرة بالخارج».. قالها الجندي للأمير إياد، فخرج من الخيمة بصحبة يونس وباقي الأمراء والقائد باسل لا يصدقون ما يرونه، كيف عاد يونس من الموت؟! وسادت الهمهمات بين الجموع حتى وقف القادة أمام شجرة الزيتون المواجهة للبحيرة، فنفخ الجندي الواقف في البوق ليسود الصمت، أُحضر الأسرى من أمراء بني الأشهب مكبلين بالأصفاد ليقفوا أمام الجموع، حينها بدأ إياد في الحديث قائلًا: «لقد عاش بنو الأشهب في جزيرتنا لقرون مدعين أنهم يحموننا من وحوش البحر بعدما انتهى العالم وعمَّ الظلام وتزايدت سطوتهم، وبطشهم فحكموا أرضنا وأصبحنا في أرضنا عبيدًا وهم سادتنا، استحلوا خيرات البلاد لأنفسهم بحجة باطلة صنعوها بأنفسهم، أورثوا أنفسهم أرضًا ليست حقًّا لهم ونصَّبوا أنفسهم أوصياء على العباد، وعندما حاول شخص أن يفضحهم لفقوا له تهمًا كاذبة بعد أن قاموا بإحراق الحقول حتى تجوع المدينة وتنسى حقها في سبيل البحث عن الحياة، لقد اكتفينا من خداعهم، وحان الوقت لتعود الأرض إلى أصحابها».

تقدَّم يونس وقال: «لقد أردتم من قبل إثباتًا على صحة كلامي بأن العالم لم ينتهِ، وها أنا ذا هنا الآن ومعي الدليل».

follow on telegram: @librarytn

ليردَّ عليه الأمير سامر في سخرية وهو جاثٍ على ركبتيه قائلًا: «أرِنا ما هو إثباتك أيها الأحمق، ما هي إلا أيام حتى يعود العم رضوان، وأقسم إنه لن يترك أحدًا منكم إلا وسيروي أرض هذه الجزيرة بدمائه».

أخافت كلماته الواقفين من أهل المدينة، ولكنها لم ترهب يونس الذي أشار إلى جنديين تقدما نحو شجرة الزيتون وقاما بالحفر تحتها، استمر الحفر لدقائق دون أن يجدا شيئًا حينها تعالت ضحكات سامر ومن خلفه باقي أمراء بني الأشهب، وقال مخاطبًا الناس: «لقد أخبرتكم يا أهل المدينة، هؤلاء الحمقى سيجلبون لكم الخراب، ستكون مدينتكم بحرًا من الدماء على يد رضوان وم...».

«لقد وجدناه يا سيدي».. قالها أحد الجنود فابتلع سامر لسانه، تطلع الحضور إلى الجنديين وهما يخرجان من الحفرة حاملين معهما صندوقًا خشبيًّا كبيرًا يبدو أن عمره مئات السنين ليوضع أمام يونس وإياد.

تقدَّم يونس إلى الصندوق وقال مخاطبًا الجميع: «هذا ما كان يعنيه سليمان الأرمدي عندما قال «وإن نسيت الجزيرة فلن تنسى أشجار الزيتون هذه الدماء التي رُويت بها جذورها، وستحمل دائمًا حقيقتكم التي ستظهر يومًا ما» والآن هو موعد ظهورها».

أشار إلى إياد بفتح الصندوق ففتحه ليجد بداخله سيفًا قديمًا أصيب نصله بالصدأ، ولكن ما زالت بعض الدماء المتخثرة عليه، ووشاح به آثار دماءٍ وطعنات وعمامة مُلطخة بالدماء، وخريطة قديمة أوشكت على الاهتراء ودفتر صغير، أمسك يونس الدفتر فطلب منه إياد أن يقرأه أمام الجميع، أزال يونس التراب عن الدفتر، وفتحه بحرص حتى لا تتمزق صفحاته وبدأ يقرأ: «أمَّا بعد، هذه شهادة مني أنا سليمان الأرمدي وصديق ورفيق عمران الأشهب على كلِّ ما شهدناه معًا، إرضاءً لضميري أمام الله وأمام الأجيال القادمة.

follow on telegram: @librarytn

بعدما أصابت الشدة مصر وعم الخراب البلاد، الذي كنَّا سببًا فيه، خرجنا من مصر فارين بأنفسنا وعائلاتنا وأموالنا خوفًا من ثورة الجائعين وبطش الوزير الجديد، سرنا في الصحراء لأيام حتى وصلنا إلى شاطئ البحر، كانت سفن عمران بانتظارنا فأبحرنا على غير هدى تتقاذف سفننا الأمواج حتى رأينا من بعيد وفي وسط البحر جزيرة أمر عمران السفن بالتوجه إليها.

وصلت سفننا إلى شاطئ الجزيرة، استقبلنا أهلها بتعجب فلم يكونوا قد رأوا غرباء من قبل، وجدها عمران فرصة ليبدأ بداية جديدة، فأمرني بعدم الكلام وقادنا أهل الجزيرة إلى منزل ملكها، كانت الجزيرة مكونة من قبيلة واحدة كبيرة ينحدر منها خمس عشائر، وكانوا يعيشون جميعًا عائلة واحدة لم يتفرقوا قطُّ، وكان يحكمهم مجلس من زعماء العشائر ويرأسهم زعيم أكبر عشيرة فنصَّبوه ملكًا عليهم، وكان يدعى «الملك داوود»، كان رجلًا شديد الطيبة والتسامح والكرم، عندما اقتادنا أهل الجزيرة إليه وإلى مجلسه أكرم ضيافتنا وعاملنا بودٍّ، حكى له عمران الأشهب قصة مختلقة عن الاضطهاد الذي كنا نعانيه في بلادنا من ملك ظالم بسبب أننا قِلَّة مستضعفة، فعذبنا الملك وأهاننا وسلبنا أموالنا ففررنا بأهلنا وأنفسنا والقدر قادنا إلى هذه الجزيرة، وأخذ يسرد المذابح التي ارتكبها الملك في حق قومنا، وأنه أجاعنا وأحرقنا واغتصب نساءنا، وكنت أسمع الحديث فاغرًا فمي غير مصدق كيف اختلق عمران كلَّ هذه القصة، فلم يكن هناك ملك ولا مذابح، وكنا نحن من سبَّب الأذى للعباد، ولكي يَحْبِكَ عمران قصته نزلت من عينه بضع دموع، عندما أنهى قصته كان الجميع متأثرين حتى إنَّ بعضًا من أعضاء المجلس ترقرقت أعينهم بالدموع، أمر الملك داوود لنا بأرض ننزل فيها لنكون جزءًا من أهل الجزيرة، كان عليَّ أن أسكت على

follow on telegram: @librarytn

كذب عمران أملًا في بداية جديدة للجميع، ولكن عذاب الضمير لم يفارقني لحظة على ما ارتكبناه في زمن الشدة المستنصرية.

عاملنا أهل الجزيرة بودٍّ بالغ دون تفرقة، فأصبحنا جزءًا منهم نشاركهم أفراحهم وأحزانهم، وظننا أن هذه هي البداية الجديدة التي سنُكفِّر فيها عما ارتكبناه، ولكن طموح عمران كان أبعد من هذا بكثير، لم يرضَ أن يصبح مجرَّد فرد من أفراد الجزيرة، كانت عينه على الحكم بل والانفراد بالجزيرة عن أهلها، فانتظر حتى تأتيه الفرصة وعندما أتت لم يفلتها، حيث كان عمران بارعًا في علوم الفلك استطاع أن يقدِّرَ موعد كسوف الشمس ببراعة، وأهل الجزيرة كانوا طيبين منعزلين عن العالم، وما أسهل خداع الطيبين!

دبَّر خطة محكمة للسيطرة على الجزيرة وعرضها علينا، وافق عليها الجميع وعارضتها أنا بشدة، كانت خطته مبنية على القضاء على سكان الجزيرة بالكامل لتصبح الجزيرة وطنًا له ولأبنائه من بعده، وعندما رفضت وهددت بأن أفضحَ أمره عند أهل الجزيرة هددني بأن يقتل أبنائي فاضطررت أن أغضَّ الطرف عن جريمته، وأسكت خوفًا على عائلتي.

وجاء اليوم الموعود وتحرك القمر حتى غطى قرص الشمس، أصاب أهل الجزيرة الهلع، ظنوا أن ضوء الشمس قد أفل، وازداد هلعهم عندما أصيب بعض ضعاف البصر الذين ظلوا محدقين إلى الشمس بالعمى، حينها ظن أهل الجزيرة أنها نهاية العالم وهرع الجميع إلى كهف كبير للغاية كان يحويه الجبل.

دبَّر وقتها عمران أن يخرج وفد مكون من أهل الجزيرة ومن جنود بني الأشهب ليستطلعوا ما وصل إليه الوضع بالخارج، وعند خروج الشباب لم يكن أهل الجزيرة ليخوِّنوا رفاقهم من جنود بني الأشهب، فانتظر الجنود حتى ابتعدوا عن الكهف وغدروا برفاقهم من الشباب، وأبقوا منهم اثنين فوق السطح لا يعودون إلى الكهف حتى يحبكوا الخطة، وعاد الثلاثة إلى

follow on telegram: @librarytn

الكهف باكين وهم يحملون قمصان رفاقهم الملطخة بالدماء وتمثالًا على شكل ناب حيوان ضخم صنعه أحد النحاتين الذين كانوا يعملون لدى عمران زاعمين أن العالم بالخارج قد انتهى، والبحر انشق ليخرج منه وحوش عملاقة التهمت رفاقهم.

أثار كلامهم هلع وخوف الجميع وعمَّت الفوضى المكان ليظهر عمران ويتقمص دور المخلص، ويعلن أنه ورجاله سيذهبون إلى الخارج لمواجهة الوحوش دفاعًا عن أهل الجزيرة لما قدموه لهم من خدمات زاعمًا أن المولى عزَّ وجل قد وهبه وقومه قوةً في أعينهم تحميهم من أن يصابوا بالعمى جزاءً لصبرهم على اضطهاد الملك لهم.

رحَّب أهل الجزيرة بالأمر، فظهر كأنه المُنقذُ الذي أُرسل ليحميهم مما أصابهم، ومع الوقت استطاع أن يخرجَ النساء والأطفال من الكهف لتصبح الجزيرة ملكًا لهم، كان عمران يهدف أن يترك أهل الجزيرة يتنازعون داخل الكهف حتى يفنوا بعضهم وينقرض نسلهم وتخلو الجزيرة له ولقومه، ولكن أكبر عقبة أمامه كانت وجود الملك داوود الذي لم يقتنع بالقصة وحاول أكثر من مرة أن يقنع أهل الجزيرة بالخروج من الكهف لكشف حيلة عمران، لكن تخلى الجميع عنه حتى عشيرته عزلته وعينت ابنه في منصبه، فأحسَّ بالخيانة وقرر أن يخرج من الكهف وحيدًا وعند خروجه واكتشافه حيلة عمران، وقبل أن يعود ليخبر قومه باغته أحد الجنود وقتله، وبهذا انفرط عقد أهل الجزيرة.

بدأ النزاع بينهم على المؤن والطعام يشتد، وتفرقت وحدتهم وتطور النزاع لحرب كادت أن تهلكهم، وعندما أوشك السلام أن يعود تدخل عمران وقتل واحدًا من أبناء إحدى العشائر، وحرق مخازن الغلال لأخرى فألقوا الاتهامات لبعض بعضًا، وعادت الحرب من جديد حتى أوشكت نهايتهم أن تحين وهذا ما كان يهدف له عمران من البداية، ولكن كان للجزيرة رأيٌ

follow on telegram: @librarytn

آخر فعندما أوشك الناس أن يفنوا بعضهم، وغرقت أرض الكهف في الدماء. فُتح في الجدار ممرٌ للأرض الجديدة، أرض ملآنة بالخيرات الذهب والفضة والماس والتربة الخصبة والماء العذب فغيَّر حينها عمران خطته من إفناء نسل أهل الجزيرة إلى استعباد نسلهم لأن الأرض الجديدة ستحتاج من يستخرج ثرواتها، ولكن أهل الجزيرة لم يتعلموا، فعلى الرغم من كثرة الخيرات في الأرض الجديدة فإن نزاعهم استمر على أماكن استيطان العشائر، وأشعلوا الحرب بينهم مرة أخرى فتركوا المجال لعمران بالتدخل بينهم مرة أخرى، وفرض سلطته عليهم بحجة حمايتهم من وقوع حرب جديدة بينهم، وأخذوا يقدمون له نصف ما تنتجه الأرض الجديدة كشكرٍ على حمايتهم من الوحوش الخارجية ومن أنفسهم.

لم أرضَ قطُّ عن هذا الأمر، وجادلت عمران فيه كثيرًا، وعندما سأم مني نفاني إلى الأرض السفلية بعيدًا عن أهلي الذين عاملهم كالخدم لأبنائه وأتباعه، حاولت في أثناء وجودي في المدينة السفلية أن أرشد أهلها إلى الحقيقة، فلم يصدقني أحد، حتى خاف عمران من أن أفضح سره، وأن يصدقني الناس يومًا ما، فاتهمني بالخيانة ومحاولة انتزاع الحكم منه، وفتح المعبر كي تلتهم الوحوش أبناء الجزيرة، وها أنا الآن في سجني منتظرًا أن ينفِّذَ فيَّ حكم الإعدام، سأدفع بهذا الدفتر إلى صديق لي آتمِنه وسيدفنها تحت شجرة الزيتون لعل الحقيقة تظهر يومًا ما، ويفيق أهل الجزيرة من سُباتهم ويرون الحقيقة وأعلم أني حتى هذا الوقت سأظل ملعونًا بين الناس، وسأظهر بمظهر الخائن، لكن الله يعلم أنني بريء من كلِّ ما وصفوني به.

وأُرفق بدفتري هذا ما استطعت الحصول عليه من متعلقات الملك داوود آخر ملوك الجزيرة قبل أن تُقسَّمَ، سيفه الذي حاول الدفاع به عن نفسه،

follow on telegram: @librarytn

وعمامته ووشاحه، وخريطة قديمة للجزيرة الموحدة قبل أن يستعمرها بنو الأشهب».

أغلق يونس الدفتر، كان الجميع أمامه في صدمة غير مصدقين ما سمعوه، ولكن سرعان ما تحولت هذه الصدمة إلى غضب عارم على سنوات عاشوها هم وآباؤهم مخدوعين، وخيرات نُهبت منهم عنوة وأرض سُرقت منهم بالحيلة، وجيلٌ كامل لم يرَ الشمس، حاول الناس أن يصبوا غضبهم على الأمراء لكن حال جنود المدينة بينهم، تقدَّم حينها إياد وقال: «الآن عرفتم الحقيقة، مَنْ منكم معي لتحرير الأرض من محتليها وتعود أزمور مرة أخرى لأهلها؟».

هلَّلَ الجميع مؤيدين، ثم أردف قائلًا: «لقد ولَّى زمن الفُرْقة، نحن جميعًا قبيلة واحدة، ومن نسل واحد فلنتحد من جديد لنكون أمة قوية وننهي قرونًا من الاستعباد حتى تعود لنا أرضنا، وها أنا أبسط يدي، فَمْن يبايعني؟».

وضع الأمراء الأربعة الآخرون أيديهم وأشاروا ليونس فبسط هو الآخر يده وقالوا: «نبايع من أجل حرية أزمور».

ثم قال إياد: «وأنا أعلن أن أول زيجة بعد الوحدة ستكون غدًا بين الطبيب يونس وأختي الأميرة لين».

***

في اليوم التالي تزينت ساحة النصر لاستقبال العروسين، وقف يونس في حُلَّة جديدة وفي طلة بهية في انتظار عروسه، وحضر جميع أبناء العشائر الخمسة من الشحاذين إلى الأمراء، أتت العروس ممسكة بيد أخيها ترتدي فستانًا أبيضَ فظهرت كحورية من الجنة، دقت الطبول وعزف العازفون وهلل الجميع بالفرح والرقص، كانت ليلة لم تشهدها الجزيرة

follow on telegram: @librarytn

منذ قرون بعيدة، فرح الجميع فيها كأسرة واحدة ناسين كلَّ خلافاتِ الماضي، ومستبشرين بمستقبل آتٍ ينعمون فيه بحرية أرضهم.

وفي اليوم التالي وعلى الفور بدأ الاستعداد للمعركة الأهم في تاريخ الجزيرة، كان الجميع موقنين بأن رضوان لن يغض الطرف عما حدث لأخيه، ولن يترك سيادة الجزيرة تضيع منه بسهولة، ولكن كيف يواجهونه وجنود بني الأشهب أجهز منهم!

كان يونس قد تواصل في أثناء اختبائه في المناجم مع زين، وأعلمه بأنه ما زال حيًّا، وعرف منه أن غضب الأرمد تجاه بني الأشهب تضاعف، وأنهم أصبحوا كالزيت الذي ينتظر الشرارة ليشتعل، فكان يضمن تأييد الأرمد إذا ما نشبت المعركة مع رضوان وجنوده، حينها واتت يونس فكرة أطلع عليها الأمراء فلاقت إعجابهم.

استمر التخطيط للمعركة لأيام أراد فيها يونس أن يتلاعب ببني الأشهب بطريقتهم نفسها، فأمر الجميع أن يخلو المدينة كلها إلى الكهوف والتلال المتناثرة على أطراف المدينة حتى إذا أتى بنو الأشهب يجدون المدينة خاوية كيوم وجد يونس سطح الجزيرة خاويًا في أول يوم احتفال قضاه على الجزيرة.

وبالفعل، هذا ما حدث أخليت المدينة يومها من كلِّ سكانِهَا كأن لم يولد بها إنسان، وأتى يوم الاحتفال وفتح الممر ودلف منه رضوان وجنوده داقين الطبول واثقين من انتصار أخيه على تمرد أهل المدينة، وصلوا إلى الساحة ليتفاجؤوا بخلوها تمامًا، ليس بها إنسانٌ سواء من أهل المدينة أم من بني الأشهب، كان كلُّ شيءٍ كما هو، البيوت بمحتوياتها حتى الخزائن كانت الملابس بها لم تنقص شيئًا، فظل يتساءل رضوان أين اختفى الجميع حتى قصور بني الأشهب كانت فارغة من سادتها وخدمها؟

follow on telegram: @librarytn

أمر رضوان جنوده أن ينتشروا في المقاطعات بحثًا عن أهل المدينة، فكان أمره هذا ما يأمله جنود المدينة، فرَّق رضوان جنوده بين المقاطعات فأضعف قوتهم كما أضعف عمران الأشهب أهل المدينة عندما قسَّمهم لعشائر، انتشر الجند في المقاطعات بحثًا عن الناس وفي غفلة منهم باغتهم جيش المدينة من خلف التلال، تشتَّتت صفوف الجنود من المفاجأة وانتشر الفزع بينهم وولوا مدبرين، فتبعهم شباب المدينة في الأزقة والطرقات، تملك الفزع من قلوبهم وفشلت عقولهم. ظلوا يجرون على غير هدى.

كانت الجزيرة قد كرهتهم، فكان كلُّ مخبأ لهم يفضحهم، كانت الجزيرة ترفض أن تخبأهم فكان الشباب يعثرون عليهم بسهولة أينما تواروا كأن البيوت والجدران تدل الشباب على أماكن مَن اختبأوا خلفها، دارت معركة عظيمة بين الفئتين سقط فيها من بني الأشهب الكثير والباقي استطاع الفرار إلى الساحة.

تفاجأ رضوان بفلول جيشه يهربون من القتال مذعورين فظل يصرخ فيهم: «ماذا حدث عودوا إلى القتال ماذا حدث؟».

ولكن لم يجبه أحد، هرب الجميع إلى الممر كي يعودوا إلى سطح الجزيرة، وفي الممر كان الأرمد ينتظرونهم بقيادة زين، انقلب الأرمد عليهم فوجد رضوان ومن معه أنفسهم محاصرين من الجهتين، ظل جنوده يقاتلون دون جدوى خائري العزيمة حتى استسلموا في النهاية وقائدهم رضوان، لتنتهي بهذا كذبة صنعها بنو الأشهب لقرون.

follow on telegram: @librarytn

(15)

خرج يونس من الكهف ومن بعده خرج إياد ولين ومالك وباقي الأمراء، وتتابع بعدهم خروج الناس حتى آخر واحد من أهل المدينة، وأُغلق الكهف بعدها إلى الأبد ولم يفتح مرة أخرى. رأى أهل الجزيرة الشمس والبحر لأول مرة منذ قرون، وعرفوا الأرض التي حرموا منها، والتي كافحوا بعد ذلك لأجلها، وعرف جيل كامل الحرية، وأعلن ولادة الجزيرة من جديد بعدما عادت لأصحابها ناسين كلَّ الفُرْقة والنزاع الذي كان في الماضي.

وقف إياد على صخرة عالية وخاطب الناس قائلًا: «اليوم عاد الحق لأهله، اليوم انتصرنا على بني الأشهب، وقبل انتصارنا عليهم انتصرنا على أنفسنا والخوف الذي منعنا حقنا لقرون، مات كلُّ مَنْ ظلم وهلك كلُّ مَنْ تجبَّر وعاشت أزمور فلتعش أزمور دائمًا».

ردد الناس في حماس: «فلتعش أزمور».

همس حينها مالك ليونس وهو يتطلع إلى البحر الفسيح أمامه: «لعن الله بني الأشهب الذين حرمونا هذا الجمال لقرون».

وفي اليوم التالي ركب الباقون من بني الأشهب ومعهم رضوان السفن التي ستنقلهم خارج الجزيرة إلى الأبد. وقف جميع أهل الجزيرة ليشهدوا لحظات انجلاء الظلم عن جزيرتهم، تحركت سفن بني الأشهب مبتعدة

follow on telegram: @librarytn

وسط تهليل وفرحة من أهل الجزيرة، التفت حينها رضوان إلى الجزيرة ليلقي عليها نظرة الوداع، أفلتت منه لحظتها الدموع حزنًا على الأرض التي ضيعها، ثم أزاح وجهه بعيدًا عنها ناحية البحر حتى اختفت الجزيرة عن الأنظار.

وفي الشارع الكبير وقف الجميع فرحين وسعداء يشهدون مراسم تنصيب إياد كأول ملك للجزيرة بعد تحريرها ووحدتها، حيًّا الجميع الملك ليبدأ مع ذلك عهدٌ جديدٌ لأزمور بعيدًا عن بني الأشهب وأعوانهم.

***

بعد 9 شهور...

احتشد جميع أهل الجزيرة أمام بيت يونس منتظرين على أحرٍّ من الجمر، كانت لين قد بلغت الشهر التاسع من حملها، وكانت الجزيرة قد تغيرت تمامًا، عاد الجميع إخوة ناسين الخلافات القديمة، واعتُبِر الأرمد عشيرة جديدة من عشائر الجزيرة بقيادة زين وطهر إياد الجزيرة من كلِّ أتباعِ بني الأشهب، وكلِّ من تآمر معهم وأنشأ مجلسًا للحكم ضم فيه أمراء العشائر ويونس بصفته وزيرًا، للملك ومالك بصفته مساعدًا لزعيم عشيرته، ولم تعد هناك تفرقة أو طبقة تتعالى على الأخرى بمنصب أو عائلة أو سلطة.

- إنَّه ولد يا سيدي.

هلَّل الجميع فرحين وانهالوا بالمباركات على يونس، أمسك يونس بالطفل الصغير وضمه إلى حضنه فقبل جبهته وقال: «سأسميه داوود»

فكان داوود أول مولود في الجزيرة بعدما عادت لأهلها، وضع أهل الجزيرة تاجًا من أغصان الزيتون على رأس الصغير واستبشر به الناس، ففرح يونس ولين وفرح معهما الجميع آملين أن جزيرة أزمور بلد أغصان الزيتون رمز السلام تعرف السلام أخيرًا.

follow on telegram: @librarytn

follow on telegram: @librarytn

في بلاد ضاعت فيها الحقوقُ وانقلبت فيها الموازين فملك الخائن واستعبد فيها الوفي وانطفأت شمسُ الحقيقةِ وحلّ ظلامُ الكذبِ وكَثُرَ فيها الذهبُ الذي غطّى بريقُه لونَ الدماءِ فظلّ سؤال يتردد... هل يا ترى جزيرة أزمور سترى يومًا السلام؟!

غلاف: عبد الرحمن الصواف

9 789779 921693

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb